صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

آذار

١٩٧٧

دمشق – ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

الادب في الجزيرة العربية

بقلم : رئيس التحرير

الجزيرة العربية مهد العرب ، وفيها امتلكوا ناصية الكلمة ، شعرا ونثرا ، مثلما امتلكوا سحر البيان وقوة البلاغة وجوامع الكلم ، وبذلك كان اعتزازهم وفخرهم ٠

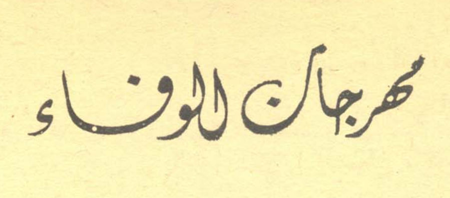
وهي مهبط وحي السماء ، وفيها أنزل الله سبحانه وتعالى ، على قلب نبيه العظيم ، قرآنه بلسان عربي مبين ، أخذ بالباب الناس ، وهز نفوسهم ، وفتح عقولهم ، فاندفعوا ، برفق وحزم الى العالم من حولهم ، يعلمونهم الحكمة ، وينشرون بينهم دين الله ، وأعطوا الانسانية كلها من فكرهم وبيانهم وقلوبهم حضارة تمتاز على كل الحضارات التي سبقتها ، بروحها السمحة ودفقها الخير ٠

وتطور الفكر في الجزيرة العربية ، وتقدم الادب ، وواكبا الحركات الفكرية المعاصرة ، وتفاعلا معها ، بعد دهر طويل من الركود ، فبدأ العطاء الخير من جديد ، ليتدفق على الناس ، سمحا رقيقا ، كما تدفق من ذي قبل ، محتفظا بميزاته الخاصة وبأصالته المتينة ٠

والرواة في العصور المتقدمة ، هم الذين حفظوا الادب العربي من الضياع ، ونقلوه الى الناس حينا من الدهر ، الى أن جاء عصر التدوين ، وما تلاه من عصور الطباعة وتطورها ٠

ومجلة « الثقافة » حرصا منها على المنهج الذي رسمته ، برصد الحركات الفكرية ونقل الادب العربي ، الى قرائها العرب في مختلف بلدانهم ، وكما فعلت في الماضي ، لتتخذ اليوم من نفسها « راوية » في أعداد مقبلة ، تخصصها للادب والفكر في المملكة العربية السعودية يسهم في تحريرها ، مفكروها وشعراؤها وأدباؤها ٠

وعسانا في هذا ، نحقق هدفنا الذي رسمناه لهذه المجلة ، بتوثيق الاواصر الفكرية والثقافية بين أبناء العروبة في الوطن العربي ، ونعطي صورة حية للادب في بلد عربي ، ظل منارا لكل العرب ٠٠٠٠



سعيد الجزائري

اذا كان في حظوظي الحلوة من دنيـاي هذه ، أنني تتلمذت على « محمد البزم » وأنا طالب في « مكتب عنبر » وقرأت ما نظمه ـ خليل مردم بك ـ ، وسعدت بصداقة ـ شفيق جبري ـ وأصغيت في الاهتمام والحب ، الى اشعاره وآرائه ، وكلها القوة والحكمـة ، فان في قدري السيء ، في الوقت نفسه ، انني لم أتعرف الى ـ خير الدين الزركلي ـ، ولم أحظ برؤيته ٠٠ وهؤلاء هم الشعراء السوريون الاربعة الذين احتلوا ، وحدهم ، على مـدى نصف قرن ، أذواق الناس ومنابر القريض وفنون الادب ، فما من منافس لهم في هذه الساحات وما من بديل ٠٠

كانوا ـ مع اختلاف الاجتهادات في نظرات جيلهـم اليهم ، وفي الموازين الشعرية المنصوبة لكل واحد منهـم ـ هم المعاني والمباني والبيان ، هم الذين خفقت الصـدور بالاعجاب بهم ، ورتلت الافواه ما أرسلوه من قصائد حلقت في سماوات الابداع ، وفي الموضـوعات القومية الوطنيـة والاجتماعيـة ، في ظـروف مدلهمـة ما كـان في طوقها أن تقال فيها كلمة ثائرة وأن يغنى قصيد عنيد ٠٠ ولقد أفاق الناس في سورية ، هذا الجزء المجاهد الغالي من الوطن العربي الكبير ، على اللغة الفصحى يصقلها ويفلسفها محمد البزم ، ويزرعها في الاجيال العربية السورية فتنبت نباتا حسنا ، وأفاقوا على شفيق جبري ، يعلم الذوق الادبي، ويسمو بالثقافة الجامعية في كلية الاداب ، وهو يحكي ، في محاضراته وكتبه ، حكايات أبي الطيب المتنبيء ، ويمضي مع الجاحظ في دراسات تحليلية مستوعبة ، قال النقـاد العرب والاجانب أنهـا الاولى في التقصي العلمي الواعي ، وفي الاسلوب القوي ، البالغ الى العقول والقلوب في وقـت معا ، وأفاق الناس في سورية ، أو الجيل الجديد فيها ، على اسـم « خير الدين الزكلي » ٠٠ ان الكثيرين فيهم لايعرفون صاحب هذا الاسم ، ولكنهم يرددونه مع أشعاره التي قرأوها

أنشدوها ، فيما بين الايدي وتحت الاعين من المجلات والصحف ··· وأين يقيم هذا الرجل ، الشاعر الذي قال في دمشق وفي الحنين اليها والوفاء لها ، وفي جهادها القومي البطل ، ما لم يقله كثير من الشعراء ؟·· هل ضاق به بلد أحبه فما استطاع مقاما فيه وغادره ، والى أين ؟·· ولكن هذا البلد لم يعرف عنه ، في كل تاريخه ، الا انه الوفي للاوفياء ، المحب لمحبيه من أبنائه ، فأين هذا الابن الشاعر الذي قال :

الاهل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النير بين شعاري

·· ودنت الافواه من المسامع تهمس : « ان خير الدين » الذي حمل شعره الوطني الثائر سلاحا ماضيا في سبيل حرية بلاده واستقلالها لا يقدر أن يعيش تحت هذه السماء وفوق هذه الارض ، ما دام الذين حكموا عليه بالاعدام ، مرتين اثنتين ، الاولى في العام ألف وتسعمائة وعشرين والثانية في العام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين ، هم الذين يحتلون ويحكمون ·· وكيف يعود شاعر الشام الى الشام ، وقصائده القومية عناوين وكتب ونداءات ، تغلي حماسة ووطنية في أفئدة الاجيال العربية التي تتصاعد في أرض هذا الوطن ، في المدارس الحكومية والخاصة ، وفي الليالي الدمشقية ، الطويلة ، الساهرة مع الشعر والفكر ، وتقدير الشاعر النازح ، والبكاء لبكائه :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ، ألفت ، ولا سكنا

★ ★ ★

ريانة بالدمع ، أقلقها
ألا تحس كرى ولاوسنا

★ ★ ★

ليت الذين أحبهم علموا
وهم، هنالك ، ما لقيت هنا

★ ★ ★

ما كنت أحسبني مفارقهم
حتى تفارق روحي البدنا

·· وتنطوي الليالي ، و « خير الدين » فيها ، قصائدها وعواطفها وثورتها ، ويصحو النهار على مدرسي اللغة العربية ، وأدابها وأشعارها ، ويستأنفون ، على أسماع الطلاب ، ما أنشدوه ، في الليالي التي انطوت ، من الوطنية المجاهدة والصرخات القومية في شعر الزركلي ، وكانت تحية الصباح ، كل صباح ، عند استاذنا « البزم » في «مكتب عنبر » الكلام على خير الدين ، كأن شعره المادة الرئيسية في دروس الادب العربي ، في الشعر ، وفي النثر ، وفي الاعراب ··

وهكذا ، بتوجيه من المعلمين في المدارس ، في الخالي من أعوامنا والزاهي من أعمارنا ، سعينا الى اختطاف ما نراه من أشعار خير الدين ، نسجلها في دفاترنا ، ونهديها الى الذين ما وصلت أيديهم اليها ·· وكيف لا نسعى الى الاختطاف والنقل والاهداء ، ونحن نقدر – والتقدير ، هنا صحيح – ان بعض معلمي اللغة العربية ، ولاسيما الاستاذ محمد البزم ، قد يطلب منا في درس الاستظهار ، بعد الاعراب القاء احدى قصائده ، بالرغم من أن اسم هذا الشاعر قبل شعره ، في تلك السنوات ، كان في رأس « قائمة الاسماء » المحظور على الموظفين في الدولة ، حينئذ ، أن يتداولوها ··

★ ★ ★

في الايام الاولى من شهر تشرين الثاني الماضي ، قلت لصديقي ، الشاعر الكبير المربي الاستاذ سليم الزركلي ، انني أعمل ، جادا ، على جمع ما في جعبتي وواعيتي وما أتوهم أنه مكتبتي في كتاب ، أريد له أن يكون في شمول غير مسبوق عن الشعراء السوريين الذين توافدوا من عبقر ، مع مطالع هذا القرن العشرين ، ومن قبله بقليل ، وان ما أدخره من شعر ابن عمه « خير الدين » ليس بالقدر الذي يعينني على أن أقول ما هو واجب أن يقال في هذا الشاعر السوري الملهم العلم ، ولقد وعدني الصديق السليم بأن يهتبل أول فرصة تواتيه ، ليزودني بما يحفظه لديه من شعر

ابن عمه ونتاجه في الادب والنشر والتاليف ، وكان الوعد ألا يكون تحقيق هذا الوعد بعيدا ، وانتظرت ، وأنا في عجلة من أمري ، أن تطل الاشعار والاثار اطلالة الحبيب على الحبيب ، انتظرت ، وما كتبت اليه وما هتفت لاذكره بوعده، فأنا أعرف أن في خلقه الابي وفاء الصديق والحرص على العهد « ان العهد كان مسؤولا » وقلت لنفسي ما قاله الشاعر: « لعل له عذرا وأنت تلوم » ··· وبعد أيام ، جاءني من يحمل الامانة ، وهي مجموعة مغلفة من الكتب والاوراق ، فضضتها عندما خلوت اليها فوجمت ، وأقول بل صعقت ، فقد وجدت ، في تلك المجموعة ، بطاقة للاستاذ سليم ، كتب عليها :

* * *

« أخي ، لك تحيتي ، وبعد فاني مرسل اليك من آثار ابن عمي المرحوم خير الدين ، الديوان ، ديوان الثورة ، ما جدولين والشاعر ، حفلة تكريمه في الحجاز ، موجز لحياته بقلمه ، تحليل لشعره كتبه الشاعر المرحوم أنور العطار ، أرجو أن تحتفظ لي بها كلها ، لانها ستكون أثمن ذكرنا لدي منه » ·

* * *

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام ألف وتسعمائة وستة وسبعين ألقى شاعر الثورة السورية على دهره وحياته والناس نظرات الوداع الاخير ·

* * *

مات خير الدين الزركلي عن أربعة وثمانين عاما ، قضاها بين الوطنية الثائرة والشعر المجاهد ، والعمل على خدمة الامة العربية ، ولغتها المعجزة ، وبيانها المبين في الشعر والنشر · واحياء التاريخ القومي العربي في كتابه «الاعلام» أما رأينا الى أجزائه ، وقد سكب فيها جهده وعلمه وحرصه على أن ينهض نسيج وحده في التحقيق الموثوق ، وفي التنسيق الكفء المطمئن الى الموضوعية والحقيقة والانصاف، والمنصفون في الناس والمؤرخين قليل ·



ولكن ·· هل يموت الشاعر ؟

هذا السؤال القديم يتجدد ، تتمتمه الشفاه ثم يعلو في كل مأتم ومهرجان ، والجواب عليه أن الشاعر الحق لا يموت ، الموت فناء ، توار ونسيان ، سفر طويل طويل ، ورحلة من الوجود الى العدم لا عودة منها ·· هل غاب الشعراء عن ذاكرات الرواة وصفحات الدواوين ؟··

* * *

ولقد أجاب « النادي العربي » في دمشق على هذا السؤال في مهرجان الوفاء الذي أقامه في اليوم الثالث من شهر شباط ١٩٧٧ عندما غصت صالته الواسعة وأجنحته بأهل الادب والفكر والعلم ، وفدوا ليسهموا في « ذكرى الاربعين » واستمعوا الى اعلام في الثقافة والوطنية والتاريخ ، والى مبدعين في تجويد الشعر ، يحيون صاحب الذكرى ، الشاعر المجاهد خير الدين الزركلي ، ويبعثون سيرته الماجدة من وثبته الاولى في تعلمه وتعليمه ، وفي خلواته الموفقة الى آلهة الشعر ، ثم الى ما منحته هذه الالهة من القوة في الموضوع ، كل موضوع ، ومن الجزالة في الاداء ، ومن السلامة الواعية في الصياغة المجوهرة ، ووقف خطباء المهرجان ، ووقف الحاضرون وقفة التقدير الجليل لجهاده الطويل النبيل في سبيل وطنه والامة العربية المجيدة ، والتراث القومي الخالد والوطن العربي العظيم ، وتحقيق الوحدة العربية الكبرى·

سعيد الجزائري

خير الدين الزركلي

عبد الرزاق البصير

منذ عشر سنين والكويت تشـهد ليالي شامية يظفرفيها المنتدبون بكل ما لذ وطاب من أغذية فكرية وأدبية لا تبغي عنها الارواح ولا العقول بديلا ، وأنها لتود لـواستطاعت ان تستمر كل ليلة ، ولكن خوف الملل والفتـور حكم على أصحاب هذه الفكرة أن يجعلوها في كل نصف شهرمرة ، وأن تكون سبعة أشهر في كل عام ، تبدأ في الشـهر العاشر وتتوقف في نهاية الشهر الرابع . لم يقـدر لي أن أشهد منها الا ليلة واحدة كانت في ضيافة أبي الحكم . وكان المفروض أن يكون المتحدث أستاذا تعمق في تاريخ الاندلس، غير أن مشاغله اضطرته الى التغيب عن الحضور.

وافتتحت الجلسة على غير ميعاد لاحد أن يتحـدث ، وكان عريف الحفل الدكتور مأمون المهايني يعرف أن الخير وافر والعيون الثرة كثيرة ، تستطيع كل واحـدة منها أن تعطي ما يرضي العقول النيرة والاذواق السليمة . فكان أن تحدث الدكتور عزيز شكري عن المنظمات العربية حديث المطلع المتجرد ، فكان حديثه متدفقا مثيرا لانه نابع من قلب مفعم بالايمان بقضية أمته ، واذا بالحديث يتشعب الى منعطفات سياسية واقتصادية واجتماعية ، أبدى الحاضرون في هـذه النواحي آراء سديدة ، اذ أن المنتدبين كانوا كلهم مـن الصفوة المختارة . فهم بين أساتذة متخصصين في التاريخ وبين حقوقيين متخصصين في دراسة القوانين وبين كتـاب يملكون تجارب غنية يساهمون في ميدان الكلمة في كل يوم.

غير ان الحديث كان ثقيـلا على النفوس لانـه رسم صورة صادقة عن واقعنا العربي ، وأن مستقبلنـا الزاهر سيكون بعيد التحقيق . وكاد الصمت أن يتغلب على الحاضرين ، واذا بالدكتور شاكر ينتزع الحاضريـن من آلامهم بقصيدة لبدوي الجبل ، فيشـدو بها يتبعها بأندلسية للشاعر عمر أبو ريشة وأخرى لنزار قبانـي ، فكان بمثابة نسـمة باردة مليئـة بالاريج ملأت نفوس الحاضرين بالنشوة ، ولم تكن الاجساد أقل نصيبا مـن الارواح ، فقد تعهدها أبو الحكم بأغذية طريفة خفيفة شهية كأسلوبه حين يتحدث ، كاتبا أو محاضرا ، بين الناس ، وانقضت أربع ساعات كأنها أربع دقائق ، فلما أردنـا الخروج أتحفنا ببحثين خصص أحدهما في تلخيص كتـاب « تراث الاسلام » وخصص البحث الثاني في تاريخ حيـاة

المناضل والشاعر والباحث «المرحوم خير الدين الزركلي »·

وأرى من حق الزركلي أن أقف عند هذا والبحث ، ولو وقفة قصيرة ، لاني متأكد أن القليل من الباحثين على معرفة به · أما الاكثرون فهم لا يعرفون عنه الا القليل واني لاعتبر الجهل بهذا المناضل الشاعر عقوقا لابد من تداركه، لان الزركلي من الذين قدموا لهذه الامة أجل الخدمات · وهل يستطيع غير أبي الحكم أن يعرف الناس بهذا الاديب المفكر ؟· فقد جرت عادة الدكتور شاكر ألا يتحدث عن أمر الا اذا لم يجمع أطرافه · وأود أن أعترف بأني تألمت عندما قرأت خبر وفاته فقد نعي في بضعة سطور ، علما بأن خير الدين الزركلي من أحق المفكرين الذين ينبغي أن تقام لهم الحفلات التأبينية وتمتلىء الصفحات بترجمة حياتهم ، فقد شارك في السياسة وفي الادب وفي التاريخ وفي الصحافة مشاركة كبيرة ، وآثاره كلها مراجع لا يستغني عنها الباحثون ·فموسوعته الموسومة بالاعلام بمثابة كوكب يتألق في مكتبة كل مثقف · وكتابه « ما قرأت وما سمعت » مزيج من السياسة والشعر والادب شبيه بالحديقة ذات الازاهير المختلفة يملك عليك نفسك حينما تأخذ في قراءته· أما كتابه « عامان في عمان » فهو وثيقة سياسية ما زالت تغضب بعض أصحاب النفوذ ·

وحين ننتقل الى شعره نجد فيه تعبيرا عما يجيش في صدر كل مخلص لهذه الامة ، ولنأخذ مثالا على ذلك قوله :

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

كانت ترى في كل سانحة
حسنا وأضحت لاترى حسنا

يا موطنا عبث الزمان به
من ذا الذي أغرى بك الزمنا ؟

يا طائرا غنى على غصن
والنيل يروي ذلك الغصنا

أذكرتني ما لست ناسيه
ولرب ذكرى جددت حزنا

لو مثلوا لي موطني وثنا
لهممت أعبد ذلك الوثنا

وقوله :

يا راقدين على الهوان تأهبوا
وتجلببوا الادراع والاكفانا

هذي بلادكم تباح ودوركم
تجتاح فابغوا غيرها أوطانا

من خال أن المجد يدرك هنيا
فلينتظر بعد الهوان هوانا

وشعر فقيد العروبة يجري كله في هذا الخط القوي المؤثر ·والديوان الاول لفقيدنا خال من النسيب ،وهو أمر لم نجده عند أي شاعر من الشعراء ،فالتشبيب متنفس يروح به الاديب عن نفسه وعن نفوس قرائه ولا سيما في أول صعوده سلم الشعر والادب · ولكن قضية هذه الامة شغلت شاعرنا الزركلي مما جعله يوقف هذا الديوان على التعبير عن معاناة هذه الامة · وقد شاء الله أن تكون تجربة أديبنا عميقة في هذه الدنيا ، فقد تقلب في عديد من المناصب ، اذ مارس مهنة الصحافة والتدريس وتفتيش المعارف ، كما كان رئيسا لديوان رئاسة الحكومة في عمان لمدة ثلاث سنين فقط ،ثم ما لبث أن تركها لانه لم ير في هذه المهنة وفي اقامته في عمان ما يرضي ثورته المشتعلة في نفسه · ثم دخل في السلك الدبلوماسي فكان مستشارا للمفوضية السعودية في مصر ، وكان مندوب المملكة عند انشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ،كما استلم ادارة وزارة الخارجية السعودية سنة ١٩٤٦ ثم سمي مندوبا دائما للسعودية في الجامعة العربية سنة ١٩٥١ ، ثم سفيرها لدى المغرب سنة ١٩٥٧ ، فلما طلب التقاعد سنة ١٩٦٣ أبقي سفيرا فخريا حتى وفاته في ٢٥ نوفمبر من سنة ١٩٧٦ · أما مولده فقدكان في ٢٥ يونية سنة ١٨٩٣ في بيروت من أبوين دمشقيين ·

ولقد ابتعد عن مسقط رأسه دمشق مدة تزيد على خمسين سنة ، ابتعد عنها بجسمه ولكنه لم يبتعد عنها

بروحه وبقلبه وعقله · فقد كان يتغنى بذكراها في كل سانحة ·

أما كيف عاد اليها ، فانه يجدر بنا أن نأخذ ذلك عن الدكتور شاكر ، فقد صاغ كيفية عودته بأسلوبه الذي تفرد به حيث يقول :

« زجاجتان من ماء بقين أعادتاه الى دمشق ، مرتع صباه ، وهو على أبواب القبر وصلتاه فجأة الى بيروت ، حيث كان يقيم وعويل الصواريخ فيها يجرح الافق ، والرصاص زغردة جهنم ، وجنون الدم يجوب الشوارع· فقال لسائقه : الىدمشق يا بني ·· وعلى الفور · ولكن ·· ما عرف أحدا في دمشق ولا عرفه ـ سوى بعض الاهل· ما تغامزت عليه عين وعين ، ولا أشارت اليه أصبع في الزحام ·· لعلها وحدها الجدران العتيقة في باب البريد »·

ثم صار الحزن والاسى يمزقان فؤاد فقيدنا الثائر المخلص حتى أصبح يتساقط قطعا قطعا ، وما زال كذلك حتى سكن ما فيه من نبض الحياة ، وانتقلت روحه الى عالم الشهداء المخلصين ·

ولا يفوتنا هنا أن نشير الىأن أديبنا كان يحمل وساما معنويا هو في واقع الامر أرفع من أي وسام مادي ··ذلك هو حكم الاستعمار الفرنسي بالاعدام عليه ·

ومعروف أن الاستعمار لا يصدر أحكام الاعدام الا على من يبث الثورة في نفوس الجماهير مما يجعله مصدر خطر على سلطتهم المنهارة ·

وكان أديبنا « الزركلي » من هذا الصنف ، لا ترتاح نفسه الا اذا عبر عن أحاسيس أمته تعبيرا صادقا ، وآية ذلك أنه لا يكتفي بمحاربة الاستعمار في ميدان الكلمة ، وانما كان يشارك الثائرين في كل الميادين ، الا أن آثاره الادبية والفكرية تبقى مضيئة يرجع اليها من شاء ·

وكانت نفسه تشعر أن مثواه سيكون في دمشق ، وان بعدت به الشقة عنها · أليس هو القائل :

وطني طال بكائي
والاسى مما عراكا
أترى تصفو سمائي
وكما أهوى أراكا
أفبعد العز والمنعة
يبغون حماكا
أنا لا أعشق مما
عشق الناس سواكا
فيك محياي
ومثوى أعظمي تحت ثراكا

وعلى أي حال ، فاننا جميعا أحسسنا كما أحس « أبو الحكم » بأن شمعة انطفأت في نفوسنا حينما بلغنا خبر وفاته · وفي اعتقادي أني محق حين أرى بأننا ينبغي أن لا نكتفي بالحفلة التي أقامتها له دمشق ، وانما ينبغي أن تقام له الحفلات التأبينية في معظم أقطار هذا الوطن ، أو تقيم له دمشق ، على الاقل ، حفلة ثانية تدعو اليها الادباء من جميع البلاد العربية ، لما قام به هذا العالم المؤرخ من أعمال جليلة شملت تاريخ هذه الامة ·

ويكفينا أن نقرأ في مقدمة كتابه « الاعلام » : هذا نتاج أربعين عاما ـ خلا فترات استجمام وفتور وانصراف الى بعض مشاغل الحياة ـ أمضيتها في وضع « الاعلام » وطبعه أولا ، ثم متابعة العمل فيه ، تهذيبا واصلاحا وتوسعا ، واعداده للطبع ثانيا · وما أطمع من وراء ذلك في أكثر من أن يكون لي ، في بنيان تاريخ العرب الضخم ، رملة أوحصاة ·

وهكذا شأن كل عالم مخلص لا يرى فيما يبذل من جهد الا تأدية واجب يفرض عليه الاخلاص للعلم وللامة · كذلك أراني محقا اذا ما ذهبت الىأنسيرة هذا الاديب المجاهد ينبغي أن تكون من بعض المقررات لناشئنا في مرحلة الثانوي فانها سيرة عاطرة ، شامخة تزرع الاخلاص لهلاه الامة في نفس كل من يتأملها · فهل تستجيب وزارات التربية في البلاد العربية ؟ ·

خير الدين الزركلي

في كتابه « ماقرأت و ماسمعت »

رحلة أسماها مؤلفها خير الدين الزركلي بهذا الاسم وهي في الحقيقة والواقع تمثل مسماها وقد سجل فيها كل ما وقع عليه بصره وما سمعته أذناه ممن يثق به في هذه الحقبة من الزمن من يوليو (تموز) ١٩٢٠ الى آخر يناير (كانون الثاني) ١٩٢١ م أي ان هذه الرحلة استغرقت وسلخت من الزمن بل من عمر مؤلفها سبعة أشهر تقريبا . سجل حوادثها في وقت عمت فيه الفوضى وانتشرت البلبلة الى الاذهان والافكار بسبب الحرب العالمية الاولى وما جرى في أعقابها على كثير من الاقطار العربية كالشام والعراق وفلسطين ... الخ .

ولكن هذه الحوادث المؤلمة ، وتلك العجائب المتلاحقة في ذلك الوقت ، لم تمنع كاتبنا القدير وشاعرنا الفذ ، أن يكتب لنا باسلوبه الشيق الرصين السهل الممتنع ، هذه الرحلة اللذيذة ويشركنا معه في الاحساس بمتعتها ، والشعور بخيالها ورياضتها وكيف لا يفعل ذلك - وهو الشاعر المطبوع والكاتب المجود الذي اذا حلق لا يبارى واذا سوبق لا يجارى ، ولسنا بصدد المدح بل بصدد الوصف لهذه الرحلة فعناوينها البارزة هي :

من دمشق الى مكة ..

عشرون يوما في الطائف

تسعون ليلة في ضيافة الملك .

جولة في البادية .

أدب البداة .

من مكة الى هليوبوليس .

لقد كتبها ـ رحمه الله تعالى ـ بعبارات جزلة وبيان صاف وباسلوب يحيط بالوصف بأوجز عبارة، حتى ليقرأها المتعلم المثقف وغير المثقف، فلا يجهد نفسه في تفهم شيء من معانيها وكلما خطرت له خاطرة ، أو سنحت له سانحة من حديث النفس وصور الخيال ، صورها للقارىء بأسلوبه الممتع وأشركه معه في متعته ولذته ، استمع اليه في ص ٣٥ حيث يقول :

(في أواخر وادي نعمان أو بعد منتصفه ، رافقنا عن يسارنا جبل قيل لنا : هذا كبكب :

عادت لنا الذكرى ، ذكرى العصور الاولى ، أيام كانت هذه الهضاب والآكام ، والبقاع والتلاع مسرح أنظار شعراء الجاهلية والاسلام يروحون فيها ويغدون ، بين غزل يطير في عالم الخيال ، وشبح يندب الآثار والاطلال ، وفخور يرى النجوم دونه ، ويحسب الناس يعبدونه على مقربة من ذلك الجبل الشامخ ، تمثل لنا امرؤ القيس وقد خيره أبوه بين الشعر وتاج الملك ، فأبى التاج ، وانفرد بعصائب التفت حوله ، يشبب ويتغزل ويحن ويفاخر .. الخ) .

حقا ان الزركلي في أسلوبه السهل الممتع الجزل المفيد الوجيز لينقش في أذهاننا جميع عبارته بقلم الخالد الذي لا ينسى وقعه ، ولا يمحى أثره ، ففي مقدمة رحلته سطر لنا براعه الخالد :

(رحماك اللهم ربي ورأفتك بأمة أسلمت زمامها المقادير الى زعماء خبطوا بها خبط عشواء وقادة كانوا حطاب ليل ، ونذر ويل ، تقحموا بها مجاهل الامور على غير هدى ، تسيرهم الاهواء والنزغات وتلعب بهم الاغراض والنزعات، طالب منصب ، وعابد درهم ، وعاشق تاج ، لا يبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون ، أو يكون) .

لقد مضى على كلامه هذا أكثر من نصف قرن ، ومداده لا يزال رطبا لم يجف بعد ، كأنه لم يكتب الا في نكبة حزيران سنة ١٩٦٧ م قبل عشر سنوات ، بل كأنه لم يكتب الا هذه الساعة لانه لا يزال قرعه للاسماع شديدا ، ووقعه في النفوس قويا ـ مع انه مضى عليه أكثر من خمسين عاما ـ سلفت فيها أمم وتعاقبت حكومات وتغيرت أحوال ، ولكن أسلوبه الخالد الذي استعمله لخدمة أمته ووطنه وبني قومه لم يتغير لانه استمده من روحه وقلبه ومن فكره واخلاصه وعقله ...

لقد كان رأيه راجحا وقلمه سيالا، وشعوره متزنا، منذ فجر شبابه ، فسجل كل ما وقع عليه بصره أو سمعته أذنه في هذه الرحلة التي سجل فيها أهم فترة من فترات الحكم الهاشمي في الحجاز ـ على قصره ـ لم يدع شاردة ولا واردة الا سجلها وأثبتها ، بكل أمانة ودقة . فهذا وصف البيت الحرام والحمام .. وهذا وصف القصر وموقعه ، وهذا المخلوان ووصفه ، وهناك العادات والتقاليد ومنها ـ معرفة أسرار تقبيل اليد ـ ووصف الاماكن بين مكة والطائف ـ ووصف الطائف ـ كما يتخيله الشاعر ، وذكر قراه وقبائله وعادات أهله ، لم يترك شيئا الا سجله بأوجز عبارة ، حتى لقد أتى على أدب البداة وسجل شيئا من محاوراتهم وأشعارهم على اختلاف أغراضها ، حتى لتعد هذه الرحلة مرآة للعصر الهاشمي في الحجاز ولنستمع اليه حين يقول ص ١٠٧ :

« وكثيرا ما كانت جماعتنا هنا من أمير الطائف ووكيل حربية الحجاز وقاضي الطائف ومدير شرطته وفريق من ضباط الجيش ، فنجمع بين لذتي الرياضة والاستقراء ، والنزهة والاستطلاع ، ولطالما كنا نعاني الصعاب في صعود بعض الجبال والهضاب ، غير ان اللذة فيما كان يلوح لنا من أثر أو منظر ، لم تبرح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويف والتشريق والتغريب ، وناهيك بما هنالك من صفاء من الارض والسماء ، وسكون في الطبيعة والفضاء ، لولا ما كان ينتاب النفس ـ وللنفس حنين ـ من نزوع وتشوق ، وتطلع وتشوف الى ديار هي ديار صباي ورباع أنسي ومهوى هواي ، ومنبت غرسي ، ديار الشام المنكوبة، بلاد الآمال والآلام سلام عليها وألف سلام » .

ومع كونه في ضيافة الملك مكرما ملحوظا ، لم ينس تسجيل شعوره ووفائه نحو مسقط رأسه الاول ، لقد عبر عن ذلك تعبيرا شعريا رائعا بأسلوب جامع أخاذ .

وهو معجب بالطائف يثني عليها ويطريها ويطري عادات أهلها ويترنم بمدحهم ، ويعاشر فضلاءها ويستمع الى بدوها ، ويسجل شعرهم ، ويستوضح معناه ويحلله ، ويورد أنواعا مختلفة من أغراضه وكبار قائليه ، وينتقل الى ذكر العادات والتقاليد ويذكر ما فيها من بعض المفارقات ويوازن ويرجح ، كل ذلك بأوجز عبارة وأصفى بيان ، فلا غرو ان عدت هذه الرحلة مرآة صادقة في تلك الآونة لهذا الجزء من جزيرتنا العربية .

رحم الله الزركلي وضاعف أجره ، وأعلى منزلته ودرجته في الطيبين والمناضلين والمجاهدين .

عبد الرزاق محمد سعيد حسن كمال
عضو النادي الادبي بالطائف

أخشى عليك

عبدالله احمد حسين

انها نفسها ذات العينين اللتين فيهما بريق أخاذ والتي طيفها يملأ ما حولها حياة وحبا وحنانا .. انها وحدها التي أوحت بهذه الابيات أيضا .

أخشى عليك من الهوى .. مني
من نظرتي الحيرى ومن فني
أخشى عليك عيون حاسدة
فلتسلمي يا بضعة مني

.. .. ..

سمراء يا أملا يدغدغني
يا نغمة قد زينت لحني
يا بسمة ما كان أحسنها
لما بدت اشراقة السن

.. .. ..

سمراء في عينيك أغنية
لم أدر - رغم الوجد - ما تعني
اني أراك الكون أجمعه
هلا رأيت كما رأت عيني

.. .. ..

لم أدر والدنيا مغردة
والبان يرقص مائس الغصن
والطير لا يبقى على وتد
طربا ولا يصغي الي لحن
والزهر أصبح باسما ألقا
قد نسقته أصابع الجن

.. .. ..

لم أدر ... ان الوجد يقتلني
ويكاد ألا ينقضي حزني
ما مر بي يوم ولا حدث
الا وخيب ما أرى ظني
لكنني أشدو على ألم
لا الكأس غاب ولا انتهى دني
هل كنت الا طائرا غردا
أخذ الهزاز نشيده عني

دمشق ٦/٢/١٩٧٧

ماهي الايديولوجية

د. عزة عجان

يكثر استعمال مصطلح (الايديولوجية) في العلوم الاجتماعية (١) وكذلك في الدعاية الدارجة . ويقف عدد غير قليل من الفلاسفة وعلماء الاجتماع موقفا مختلفا من مفهوم هذا المصطلح ويعلنون بأنه يستعمل هنا معاني متنوعة :

أورد عالم الاجتماع النرو يجي (أرني نيس) بعد مقارنات واسعة ثمانية عشر نموذجا رئيسيا من تعاريف الايديولوجية هي التالية :

١ ـ تفهم الايديولوجية بأنها نماذج / مناهج ، وانظمة ، ومركبات / فكرية .. وهذا يعني / الافكار ، والقيم والاقتناعات والايمان / .

٢ ـ وبانها نماذج من المواقف التي تحدد شخصية الجماعة والطبقة والمرحلة التاريخية وكذلك الفرد نفسه .

٣ ـ وبانها نماذج من المواقف وايضا الافكار التي تحدد شخصية الفرد ، والجماعة ، والطبقة ، والمرحلة التاريخية .

٤ ـ وبانها التركيب الروحي الكامل لمرحلة تاريخية .

٥ ـ وبانها نماذج من الاراء والافكار والعقائد الدينية التي تحدد قواعد السلوك .

٦ ـ وبانها نماذج من الاراء والافكار والعقائد الدينية التي تحض الناس على العمل .

٧ ـ وبأنها نظام من الاراء والافكار المنبثقة عن وجهة النظر التي تقول : / ما كان يجب أن يكون / .

٨ ـ وبانها نظام من الاراء والافكار وكذلك خطة العمل المنبثقة عن وجهة النظر التي تقول : / ما كان يجب ان يكون / .

---

(١) يقصد بالعلوم الاجتماعية علم التاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد السياسي ، والحقوق ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاخلاق ، وعلم النفس الاجتماعي وما شابه ذلك .

٩ ـ وبأنها نماذج من القيم تنبثق عنها الاهداف •

١٠ ـ وبأنها أفكار ، وآراء وعقائد ترتكز على شروط معينة اجتماعية وثقافية أو اقتصادية ، وتعلل على أساس هذه الشروط •

١١ ـ وبأنها أفكار ، وآراء ، ومواقف ، ومماثلة / مع أحد أو شيء / وجهتها أهداف نفسية •

١٢ ـ وبأنها نماذج من مفاهيم خرافية وملتوية حول الحالات والعمليات الاجتماعية •

١٣ ـ وبأنها اقتناع بالقوانين الاجتماعية أو السياسية مصحوب بشعور معاكس يوحي بزيف هذا الاقتناع •

١٤ ـ وبأنها نماذج من الافكار ، والاراء ، والعقائد التي يتوجب عليها حماية تركيب ومصالح السلطة واضفاء الشرعية على القتال من أجل نشر هذه السلطة •

١٥ ـ وبأنها تمثل أحكاما تقيمية لحقائق مجربة • هذه الاحكام تهدف الى تبرير مكاسب مادية ومعنوية •

١٦ ـ وبأنها مفهوم يفترض على اتباعها أن يفهموها كنظام منطقي وميثاق علمي •

١٧ ـ وبأنها مفهوم يفترض على اتباعها الوعي بأنها التزام •

١٨ ـ وبأنها عنصر الشعور والمعرفة الذي يظهر بوضوح في سلوك الفرد •

★ ★ ★

هذه المجموعة المتنوعة من التعاريف لمصطلح الايديولوجية تعكس مواقف الفلاسفة وعلماء الاجتماع تبعا لمناهجهم ونظرتهم الى الحياة الاجتماعية • الا أنها ليست كل الاراء •

جاء مفهوم الايديولوجية أصلا في تعاليم الممثلين البارزين للفلسفة البورجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لى مثال :

(١٧٥٤ ـ ١٨٣٦) ديستوت دي تراسي •

(١٧٥٧ ـ ١٨٠٨) كابانيس بيير •

وكان تعريفها (علم عن الفكر وقواعد بنائه) •

الا أن نابليون بونابرت رغب أن يسخر من هؤلاء الفلاسفة فاستعمل للتشهير بهم كلمة (الايديولوجيين) • وكان ذلك أول استعمال لهذا المصطلح في النضال السياسي الا أنه اكتسب معنى التشهير والتقليل من القيمة حتى فترة طويلة •

أما المرحلة الجديدة لتطور مفهوم الايديولوجية فقد بدأت مع ظهور فلسفة الطبقة العاملة وفلسفة الطبقات والصراع الطبقي •

أكدت هذه الفلسفة على الشروط المادية لظهور الاراء الايديولوجية وصلة هذه الاراء بالمصالح الطبقية ، مصالح كل طبقة من الطبقات •

واستعملت مصطلح الايديولوجية في البدء للدلالة على الاراء والنظريات التي تشوه صورة الحقيقة لمصلحة الطبقات المستغلة والتي تحاول شرح الحقيقة الاجتماعية على أنها فكرة مقدرة • وبكلمات أخرى أنها آراء ونظريات ليست بالعلمية ولا بالموضوعية وتكون صورة مزيفة لهذا العالم •

وفي التطور اللاحق لهذه الفلسفة استعمل مفهوم الايديولوجية في معنى آخر يختلف تماما عن الاستعمال السابق •

اعتبرت الايديولوجية هنا مجموعة من الاراء والافكار التي تنير اتجاه نشاط الحركة السياسية •

ان الايديولوجية المفهومة بهذه الصورة يمكن أن أن تكون حقيقة ، ويمكن أن تكون مزيفة • يمكن أن تكون رجعية أو تقدمية ، وقد تكون مطابقة للمقدمات الحقيقية للتطور التاريخي أو غير مطابقة •

ومع ذلك فقد عاد الاستعمال الاول لمفهوم الايديولوجية يبرز من جديد خلال السنين الاخيرة في دراسات علم الاجتماع غير البورجوازي وفي الصحافة التي تدين بفلسفة الصراع الطبقي •

ان عدم وضوح مصطلح الايديولوجية بات مصدرا لسوء التفاهم مما دعا البعض الى المطالبة بتحرير العلم من التشويهات الايديولوجية • وكانوا يعنون بذلك المفهوم الاول لمصطلح الايديولوجية وبالطبع فان البعض ممن اعتادوا على المعاني الاخرى للمصطلح فهموا ذلك بأنه دعوة الى فصل العلم عن النضال السياسي العملي •

وقف منظرو فلسفة الصراع الطبقي ضد هذه الدعوة وقالوا : يمكن وضع حد لسوء التفاهم عندما نقبل هذا المعنى للايديولوجية أنه معنى عام نسبيا وحيادي ولا يقرر مسبقا قيم المعرفة التي يجب أن تحملها الاراء التي تخص الايديولوجية •

نعرف الايديولوجية بأنها أنظمة من الاراء التي تنشأ عن الشروط الحياتية لفئة اجتماعية معينة ، والتي تكون القاعدة الفكرية للنشاط العملي • نتيجة لذلك فان من المسلم به أن يخص الايديولوجية الاهداف التي سيناضل من أجلها والتوجيهات الخاصة بوسائل تحقيق هذه الاهداف • كذلك يخصها الافكار التي تعمل على توضيح الحياة في المجتمع وتعليل التصرف والسلوك المعين • وأخيرا يخصها الشعارات والرموز التي تستخدم لاضفاء المناعة على الفئة الاجتماعية بأكملها •

ان الايديولوجية التي تفهم هكذا تحتوي في داخلها على أنواع متنوعة جدا من الاراء • بعض هذه الاراء يدخل في اطار الافكار التي نلتقي بها في العلوم حول المجتمع والتي تشرح كلها ما هو العالم •

نفهم الايديولوجية العلمية بأنها تلك الايديولوجية التي تكون فيها غالبية الاراء عن الحقيقة موافقة للحقيقة الموضوعية أو موافقة على الاقل للواقع العصري لمفاهيمنا عن هذه الحقيقة • آراء يمكن التثبت من صحتها علميا •

فاذا ما فهمنا علمية ايديولوجية معينة على هذه الصورة فاننا لا نستطيع أن نوافق مع أولئك الذين يظنون أن العلم والايديولوجية هما ظاهرتان لمجالين متناقضين من الحياة الاجتماعية ، والذين يظنون أيضا أن مفهوم الايديولوجية العلمية يحمل التناقض في داخله •

نفهم مما سبق أن ليس كل ايديولوجية تكون علمية • ان علمية كل ايديولوجية تتوقف قبل كل شيء على الحالة الموضوعية للطبقة أو الفئة الاجتماعية التي تكون هذه الايديولوجية في خدمتها • وتتوقف أيضا على هذا فيما اذا كانت الاهداف والادوار التي تضعها الطبقة أو الفئة الاجتماعية صالحة للتعليل علميا وبالاقناع على أساس الوضع المعاصر للمعارف العلمية •

ويفهم أيضا أن العلم حول المجتمع هو في ذاته ايديولوجية الى حد ما بقدر ما تكون نظرياته وشروحه صورة عن العالم لها أهميتها في تعليل نشاط الجماعات •

وكذلك يفهم أنه يخص الايديولوجية المقدمات والشعارات التي لا تتحدث عن الحقيقة ولا تكون جزءا من العلم وانما تكون تاريخيا صيغ هامة قيادية للمثل العليا للنشاط البشري • وقد يكون لهذه الشعارات في بعض الاحيان من حيث الدور الاجتماعي الذي تلعبه في التاريخ نفس المعنى لبعض النظريات العلمية المعروفة ، مع أنها تعبر عن طراز آخر من الشرح الذي نصادفه في مجال العلوم التي تعتمد مبدأ الحقيقة والغلط •

ان الايديولوجية لا تقف في مكان ولا تتكون بجمود الصيغة الفكرية الجاهزة • كل مرحلة من التحولات التاريخية تنتج تيارات ايديولوجية خاصة بها ، تنتج أفكارا كبيرة تحدد اتجاه السلوك البشري ، وبدون ظهورها لا يمكن وجود التطور التاريخي لان الناس يتوجب عليهم عمل كل خطوة تالية في تطورهم التاريخي ضمن ثوب ايديولوجي معين وتحت شعارات محددة • هكذا فسر عالم الاجتماع البولوني (تسارنوفسكي) تأثير **(الفكرة الاجتماعية)** •

تفهم الفكرة الاجتماعية بانها نموذج حياة للافراد كأعضاء في العشرة البشرية ونموذج للمجتمع من أجل تعايش الافراد فيه . وتحقيق هذا النموذج أمر ضروري . لذلك فهو يشكل توجيها للسلوك .

ان الفكرة المنبثقة من أعماق المسرة والشقاء ، واليأس ، والاندفاع ومن الطموحات المتراكمة للاجيال تظهر كهدف محدد لطريق البشرية . فمنذ اللحظة التي تتكون فيها الفكرة تبدأ بالتأثير مستقلة وتكون كالشعلة تتجمع حولها القوى الاجتماعية . وهي ترسم في نفس الوقت وجهة نشاط هذه القوى . وتدريجيا يتعاظم هذا النشاط فيتطلب حاجات جديدة ويعود يؤثر على الفكرة التي جاء منها ليغير محتواها وشكلها . وفي النهاية تتلاشى الفكرة السابقة وتظهر مكانها أفكار جديدة تكون حقيقة عصرها ، تكون في مرحلتها قوة حقيقية جبارة .

ان التحول التاريخي للافكار أمر لا مجال للشك فيه كما لا مجال للشك في تحول قيمتها النسبية أيضا .

ما من فكرة تمثل حقيقة مطلقة .. كل فكرة تعني وجهة نظر معينة لطبقة أو لشعب أو لحركة . ويعني ذلك أنه لا بد من النظر اليها نظرة نسبية تماما ومن خلال مسألة قيمة المعرفة للايديولوجيات الكبرى .

ان الايديولوجيات الكبيرة هي بالطبع (حقائق عصرها) وكذلك هي حقائق جماعتها أو طبقتها أو حركتها وهي في نفس الوقت تحوي في مقياس كبير أو صغير عنصرا مستمرا من قيم المعرفة البشرية ، الا أنها تبقى ناقصة بقدر ما تعبر عن المصالح الخاصة والمختلفة للفئة المعنية. وتكون عامة بقدر ما تستطيع تخطي حدود المصالح العادية. ولا يتوقف الامر على هذا فحسب بل على مصالح من تمثل هذه الايديولوجية . وتبعا لذلك تتميز قدرة الايديولوجية على تخطي المصالح الضيقة المحدودة للفئة المعنية وتتميز قدرتها على حمل الرصيد الدائم لتطور المعرفة البشرية .

وكلما كانت الفئة أو الطبقة أكثر تقدمية كانت المصالح أعم وأشمل ..

وبهذا تتطابق الايديولوجية أكثر فأكثر مع الميول التطورية للمجتمع ومع آفاق واسلوب النظرة الى العالم فتكسب السيطرة في المستقبل .

لهذا فان ايديولوجية الطبقات التقدمية تملك النظرة الاوسع في معرفة القيم على عكس الايديولوجية غير التقدمية للطبقات الاخرى اذ أن القوة المحركة للفكر التقدمي هي قبل كل شيء الصراعات الموضوعية والامكانيات الكامنة في ترابط الايديولوجية مع النشاط الجماهيري للطبقات التقدمية .

ان مصالح الناس وقيمهم ومثلهم لها مصادرها المحددة . وهذه المصادر تكمن في العلاقات الاجتماعية التي تظهر بين الناس من خلال نشاطهم المادي والروحي . أي من خلال علاقات الانتاج التي تشكل النظام الاقتصادي للمجتمع. وتبعا لطبيعة هذا النظام تحدد شخصيته الطبقية كما تحدد الادوار الاجتماعية التي يقوم بها الانسان في ظل هذا النظام .

ومن خلال ممارسة الانسان لدوره الاجتماعي تبرز شخصيته ومصالحه وايديولوجيته وتبعيته لطبقة معينة في المجتمع .

ان اختلاف الحالة الاجتماعية للناس في المجتمع الطبقي وانتسابهم الى فئات اجتماعية متنوعة يبرز بصورة عامة الخلافات التي تظهر على أساسها التناقضات الجذرية بسبب الصراعات الموضوعية بين مصالح مختلف هذه الفئات

ما تقدم من شرح ينتهي بنا الى تعريف للايديولوجية أكثر دقة وشمولا . يقول التعريف :

الايديولوجية منظومة من الآراء والافكار والنظريات فيها تعبر الفئة الاجتماعية وتعي وتضبط مكانتها الاقتصادية والاجتماعية ومصالحها . انها الوعي الطبقي نظريا .

الايديولوجية هي أعلى درجة للوعي الطبقي • وهي وأشكالها الرئيسية (السياسية ، والحقوق ، والاخلاق ، والفلسفة ، والدين) تظهر قانونيا بظهور المجتمع الطبقي وتتصل بأشكال الوعي الاجتماعي •

الايديولوجية من حيث الوظيفة تشكل القسم الرئيسي من البناء الفوقي وتسري في كل أشكاله الروحية وفي منظماته ومؤسساته • لذلك فان البناء الفوقي من هذه الناحية هو في الوقت نفسه مجموع العلاقات الايديولوجية•

الايديولوجية تصل الوعي الاجتماعي بالقاعدة الاقتصادية وتعطيه المحتوى الطبقي(١) ••

وأخيرا هناك تعريف يوجز مجمل البحث • وهو التالي :

الايديولوجية نظام من الآراء السياسية ، والحقوقية، والاخلاقية ، والفلسفية ، ومن الافكار والنظريات التي تكونها طبقة اجتماعية معينة عن المجتمع وعن نفسها ومركزها وعلاقاتها بالطبقات الاخرى وبالمجتمع ككل •

الايديولوجية محددة بالوجود الاجتماعي وقبل كل شيء بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع • وتكون انعكاسا حقيقيا أو غير حقيقي لهذه القاعدة في وعي الناس •

ان معنى الايديولوجية يكمن في الدفاع عن مصالح الطبقات الاجتماعية التي كونتها وفي تدعيم مكانتها الاقتصادية والاجتماعية ومناوأة مكانة الطبقات المعادية • ففي المجتمع الطبقي تقف الطبقات المتصارعة وجها لوجه • ولذلك فان الصراع الايديولوجي هو جزء من الصراع الطبقي •

(١) القاعدة الاقتصادية هي مجموع علاقات الانتاج التي تكون التركيب الاقتصادي للمجتمع • ويقوم على هذه القاعدة بناء فوقي سياسي وحقوقي واخلاقي •

قد تكون الايديولوجية علمية وقد لا تكون فتسمى (بالوعي الزائف) فاذا كانت مكانة الطبقات ومصالحها تتعارض مع ميول وقوانين التطور الاجتماعي فان ايديولوجتها تكون زائفة لانها تدافع عن مكانة وأهداف موجهة ضد هذه القوانين الموضوعية •

ان موضوعية هذا البحث تفترض من أجل استكماله ايراد تعريف لايديولوجية البورجوازية الصغيرة والايديولوجية الدينية •

أما بالنسبة للايديولوجية الاولى فيورد الباحثون هذا التعريف :

هي الآراء والنظريات التي تكونها البورجوازية الصغيرة والتي تمثل انعكاسا لمكانتها الخاصة في الانتاج الرأسمالي ، أي أنها تشغل (مكانة وسطا) • فهي من ناحية تملك وسائل الانتاج فتميل الى الرأسمالية والبورجوازية وهي في نفس الوقت تعيش من تعبها الخاص فتقع تحت جذب الطبقة العاملة •

والملامح الرئيسية لهذه الايديولوجية هي المساومة والمهادنة والبحث عن الحلول الوسط وغير الجذرية وكذلك التأرجح •

ومع هذا ففي بعض الاحيان تتميز بديمقراطية معينة وشيء من الراديكالية •

وفيما يتعلق بالايديولوجية الدينية فتعرف بأنها :

الآراء والتعاليم القائمة على الايمان بوجود الخالق • وعلى هذا الاساس يتم شرح وتفسير كل ما يجري في هذا العالم •

الخلاصة : كل صحافي كاي عضو في المجتمع يمارس دورا اجتماعيا •

وهو من خلال هذه الممارسة وارتباطه بعلاقات اجتماعية واسعة يحدد مصلحته وايديولوجيته • ولا يمكن قطعا أن يضع نفسه خارجا • أي أنه مرتبط حتما باحدى الايديولوجيات ويعني هذا الدفاع عن أهداف الايديولوجية التي يرتبط بها وعن مصالحها ، لذلك لا يمكن أن يكون محايدا •

آخر الرسائل

ليلى العثمان

للمرة الاولى احسست بأن ريم ترتبك حين أدخل غرفتها ، فولد عندي هذا الاحساس مزيدا من التساؤل . اقتربت منها ولمست شعرها الناعم بيدي ... لمسته بحنان .

ـ ريم ما بالك ترتبكين ؟؟

وأقسمت :

ـ لا شيء يا أمي .. لا شيء .

وتطلعت اليها بعمق ، هذه الدافئة .. الرائعة .. نظراتها التي تلمع ، رموشها الطويلة التي تكاد تلامس وجنتيها ، ماذا تخفي تلك الصغيرة ؟

وطال تأملي لها وهي تتململ .

ـ ماما .. اتركيني أريد أن أكتب .

ـ يحيرني يا ريم ما تكتبينه ..!

وتركتها .. وهاجس في نفسي يقلقني .. ترى ؟ ما الذي تخفيه ابنة التاسعة ؟ وحين اقتربت نحو الباب سمعتها تنادي :

ـ ماما .

ابتسمت لها من مكاني لعلي بابتسامتي أشجعها على أن تقول شيئا ، أي شيء .

وألقت بكلماتها :

ـ ماما .. كثيرا ما دخلت عليك وأنت تكتبين ، وكلما سألتك لمن تكتبين تلك الرسائل تجيبين بأنها رسائل الى الله ..

تركت أكرة الباب واقتربت منها وبحنان سألتها :

ـ هل تشكين يا ريم بصدق كلامي ؟

ألقت برأسها على يدي وقالت :

ـ لا يا أمي ولكنك لم تسمحي لي مرة ن أقرأ ما تكتبين له .

أمي هل تصل الرسائل الى الله ؟

وفاجأتني بسؤالها واحترت بماذا أجيب ، تلعثمت الكلمات على لساني وتعثر الرد فانتشلتني من العثرة وأكملت :

ـ صدقي ان رسائلك تصل اليه ، انه يعلم كل شيء .

ومسحت على رأسها .

ـ أجل .. أجل .. انه يعلم كل شيء .

دفنت نفسي قرب محمود ·· وبقيت شاردة حتى حين سالني أن أقرأ له جرائد اليوم ما تأخرت عن الاعتذار له :

ـ لا أستطيع الليلة يا محمود ·· شيء ما يقلقني ··

وتنهد ···

ـ كثيرة هي الاشياء التي تقلقك وأولها أنا ·

التفت اليه ·· وحضنت رأسه وقبلت جبينه الذي طالما عرق من أجلي · ومن أجل ريم · وأحسست فجأة انني أريد أن أبكي ·· أبكي ·· ولا انتهي ، لكنني أشفقت عليه حتى من دموعي ، كما أشفقت عليه حتى من حبي ، من عطفي عليه الذي كان يعذبه ··

أخذ يدي بين يديه وشهق مستغربا :

ـ يدك باردة يا حبيبتي ··

ثم دفنها في صدره بعد أن قبلها عدة مرات ، وحين ارتاحت يدي في صدره · نسيت ريم · نسيت كل ما قالته · نسيت أنها تستغرب رسائلي الى الله ، وحضنته بقوة واستسلمت للنوم ·

في ذلك اليوم حضنت ريم بعنف وكررت عليها أنها يجب أن تشرب الحليب حتى أخره· وأن تأكل «السندويتش» حتى تسمن ·· ويكبر عقلها ، فعلقت على كلامي تقول :

ـ هل تشكين أن عقلي كبير ؟؟

داعبت وجنتيها المحمرتين من أثر البرد ودثرتها بالبالطو وهي تتململ ·

ـ لو تصدقين يا أمي بأن هذا البالطو يعيق حركتي، انه ثقيل ، أكرهه ·

ـ لا بأس يا ريم ، يجب أن تحسي بالدفء ، أخاف عليك يا حبيبتي أنت ، هل تعرفين كم أحبك ؟

ـ أعرف ·· أعرف ·· كما تحبين بابا ·

وانفلتت من يدي وأسرعت الى غرفة والدها ، كان لا يزال مستغرقا في النوم ، وحين ألقت بنفسها فوق صدره دمعت عيناه ، فأحسست بالتمزق ، شعرت بأن سكاكين العالم كلها تتبارى لتصل الى صدري فتذبح شرايينه ، شريانا تلو الاخر ، حتى تسيل دماء أحزاني ··

ـ بابا أتمنى مرة لو تستطيع أن توصلني الى المدرسة ·

ومسح على رأسها وتمتم

ـ ان شاء الله ، يوما ما ·

وكنت أعلم أن هذا اليوم لن يجيء ··

فخزنت الالم في صدري واستعجلتها ، وحين خرجت من الغرفة سمعتها تهمس لوالدها ·

ـ لقد أرسلت الى الله رسالة ، سوف تشفى يا أبي ·

وهبط قلبي ··

اذن ريم كانت تكتب رسالة الى الله !! لم أستطع أن أتمالك نفسي فما أن عدت بعد توصيلها حتى دخلت غرفتها وبدأت أبحث في أدراجها · كنت أعلم يقينا أنه ليس من حقي أن أعبث بأوراق طفلتي ، لقد عودتها أن تكون المسؤولة عن غرفتها وعن كل الاشياء الموجودة فيها · حتى مكتبها الصغير لم تمتد يدي لترتيبه منذ دخلت المدرسة لاول مرة ومنذ طلبت مني أن يكون لها مكتب خاص بها كانت تصيح متأففة كلما طلبت منها أن تترك مكتبي لانني أريد أن أكتب :

ـ أف يا ماما ·· يا ليت عندي مكتبا !

يومها عاتبني محمود ·· وأصر على أن نوفر لريم مكتبا صغيرا ونحقق أمنيتها ·

تذكرت هذا ويدي تبحث عن شيء داخل الادراج ولكنني لم أجد شيئا ·· وعندها قررت أن أبحث في في خزائنها ونبشت كل ما يمكن أن أشك بوجود شيء فيه وكنت حريصة على أن أعيد كل شيء الى مكانه ، حتى الاشياء غير المنظمة كنت أحرص على أن أبقيها كما هي ·

وأخيرا وجدت علبة ·· تذكرت أن ريم يومها أصرت على أن أفرغ كل ما بها لانها تريدها لشيء ما ·· وحين دققت بسؤالي أجابت :

– معلمتي تريد علبة فارغة كي تصنع منها صندوقا جميلا ·· صدقتها ، وأفرغت محتويات العلبة وقدمتها لها ·· وهاهي الان بين يدي ··

فتحتها ··!

ففوجئت بمجموعة من الاوراق المطبقة ، وفاجئني شعور بأن هذه الاوراق تحمل الشيء الكثير مما أخفته عني ريم ·

جلست على طرف سريرها ، فاهتز ، تذكرت أنها أكثر من مرة نبهتني الى أن سريرها يهتز لكنني كنت أنسى · وعدت أتذكر الان ·

لكن الاوراق بين يدي ، تثيرني وتعيدني اليها رغم أن تساؤلا في عقلي كان يلح :

– ترى : هل ما زالت نمرة هاتف النجار « أبو وائل » موجودة أم انني أضعتها بين الاوراق ؟

أمسكت بأول ورقة وفتحتها فقرأت بخطها الرائع :

« يا رب ·· يموت كلب جارنا أبو حسن انه يخيفني في الليل » ·

يا لله ! يا لله !

ارتجفت ·· فقد تذكرت أن الكلب قد مات قبل شهر تقريبا ··

وأمسكت بورقة أخرى وقرأت ··

« يا رب ينجح سمير بن خالتي انني احبه » ·

وابتسمت سعيدة لوفائها لابن خالتها سمير رغم بعده عنها حين أصرت أختي أن يتلقى علومه خارج بلده ·

وتابعت فتح الاورق ··

« يا رب تلد أرنبتنا أرانب صغيرة بدل الذين ماتوا » ·

« يا رب تكبر زهور حديقتنا حتى أقطف منها كل كل يوم زهرة لمعلمتي » ·

« يا رب عاقب كوثر ، لقد سرقت نقود رولا ·

ومضيت أقرأ ·· وأقرأ ، كلها كلمات بريئة رسائل الى الله ، ما أضحكتني رسالتها الى الله التي تقول بها :

« يا رب يكبر عقل خادمتنا زهرة لانها تتعب أمي » ·

طبقت الاوراق ·

وسرحت ·

الكلب مات ·

وسمير نجح في الامتحان ·

والارنبة أنجبت ست أرانب أصرت ريم أن تأخذ واحدة منها لمتحف المدرسة ·

وكبرت الزهور وكانت ريم تقطف كل يوم زهرة لمعلمتها نادية·· وكوثر: صديقتها ، لقد اتصلت بأمها قبل أيام كي أسأل عن جراح يد ابنتها التي احترقت بالماء الساخن ·· وزهرة الخادمة كانت منذ يومين في أنضر حالات عقلها حيث أنهت كل أعمالها بدقة خلال ساعات قليلة ·

يا الهي ··

ريم تطلب من الله ··

والله يستجيب ··

أقشعر جسدي رهبة وتساءلت : لماذا لا تطلب ريم من الله أن يشفى والدها المشلول ؟

لماذا لم تطلب منه أن يعطيه قلبا غير قلبه المريض الذي يعاني من أزماته فيقف الاطباء أمامه حائرين ·

لماذا ؟ لماذا ؟

وسالت دموعي وأنا أتذكر كلماتي اليها بعد آخر لقاء قبل يومين مع طبيب والدها ··

حدثتها بصراحة ⋅⋅ كأنني أحدث امرأة مثلي ⋅ لم أرحم سنواتها التسع ، ولم أرحم رقة مشاعرها حين أخبرتها أن الطبيب يقول :

ــ لا فائدة : محمود سينتهي خلال أسابيع ، يومها القت بنفسها على الارض وأخذت تصرخ :

ــ لا ⋅⋅ لا أريد أن يموت بابا ⋅⋅ لا ⋅⋅ هذا كثير ⋅⋅ هذا كثير ⋅⋅

ورفعتها عن الارض ، وشربت دموعها دمعة دمعة ، وشددت على كتفيها وقلت بحزم :

ــ ريم ⋅⋅ أنت كبيرة ويجب أن تواجهي الامر بشجاعة ،ان الموت أرحم له من البقاء ، انه يتعذب من أجل نفسه ومن أجلك ⋅⋅ ومن أجلي ⋅⋅ وابتلعت ريقها ⋅⋅

وابتلعت دموعها ، ورأيتها بعد ذلك سيدة موقف كنت أخاف عليها من عظمته ⋅ كأنها نسيت تماما ما قلته لها ⋅⋅ كأنها لم تصدقني ⋅ كأن ما سمعته مجرد هراء ⋅⋅ وأن والدها سيعيش ⋅⋅ سيعيش ⋅⋅

ولم ينتشلني من شرودي الا صوت جرس الهاتف⋅⋅ رنينه المزعج المتواصل يهزني ⋅⋅ فلملمت رسائل حبيبتي وأعدتها مكانها وأسرعت ، واذا بالخادمة صفراء الوجه شاحبة تهتف ⋅

ــ المدرسة تطلبك حالا ⋅

وتسمرت ⋅

ــ المدرسة خير ⋅

ولا أدري هل خرج صوتي من حلقي ، أو أن الصوت الاخر قد سبقني فسمعت من يقول :

ــ ريم وقعت من الدور الرابع ⋅

ولم أعد أعي شيئا ⋅⋅

★ ★ ★

سنتان ⋅⋅ مرتا ⋅⋅ وما زلت جالسة قرب محمود المشلول الذي قال طبيبه بانه سيودع الدنيا خلال أسابيع ⋅ أقرأ الجرائد وأبكي ⋅

آكل حزني وأمضغ الصبر بملل ⋅

ريم ⋅⋅ ريم لا تفارق عيوني ⋅⋅ وغرفتها مغلقة منذ ذلك النهار ⋅ وقلبي مغلق تمنيت لو يستطيع محمود أن يفعل شيئا ⋅⋅ أن يعوضني عن ريم الرائعة المتدفقة المشتعلة ذكاء وبراءة ⋅⋅

لكن محمود لا يتحرك ، حتى لسانه الذي كان ينطق صمت منذ وقعت ريم من الدور الرابع في مدرستها حين كانت تنظر من أعلى كي تتابع سقوط الزهرة التي قطفتها ذلك الصباح لتهديها الى معلمتها ⋅⋅ سقطت الزهرة ⋅⋅ وسقطت ريم ⋅⋅

أحاول الا أتذكر ⋅⋅ أحاول فلا أستطيع ، وأستعيد ذلك اليوم حين وجدت في حقيبة يدها ورقة كتب عليها :

ــ عادلة ⋅⋅ أنت شريرة وأنا لا أحبك ، وحينها فزعت لماذا تكتب ابنتي هذا عن زميلتها عادلة ؟

في الايام البعيدة وبعد شهرين كنت أزور مدرستها لاتسلم شهادتها التي رحلت قبل أن تتسلمها ⋅⋅

وهناك لمحت عادلة ⋅⋅ اقتربت منها ففزعت ــ مسحت على شعرها فارتاحت وسألتها :

ــ عادلة ⋅⋅ هل تكرهين ريم ؟؟⋅

وجلت أول الامر ثم قالت بارتباك ⋅

ــ لا ⋅⋅ لا أكرهها ⋅⋅

هل غضبت منك مرة

ــ لا ⋅⋅ لا ⋅⋅

وارتبكت أكثر ثم قالت وعيناها تمتلئان بالدموع :

ــ أجل ⋅⋅ أجل ⋅⋅ غضبت مني مرة ⋅

ــ لماذا ؟ لماذا قولي ؟

بلهفة كنت أتساءل وأريد انتزاع الاجابة انتزاعا ⋅

وردت عادلة :

ــ لقد قضمت ممحاتها ⋅⋅

وتنهدت .

ـ ولماذا

قالت :

ـ لم يكن لدي ممحاة فاستعرت ممحاتها لكنني قضمتها ، نصفها لي والنصف الاخر لها ، فغضبت مني لانني لم أستأذنها في ذلك .

تنفست بعمق ،

يا لسذاجة الصغار ..!

وحين عدت يومها .. قررت أن أعلق شهادة ريم رغم رحيلها ، وفكرت في مكان ما .. لكنني تذكرت حبيبتي .. فلقد حاولت مرة أن أرفع « أية الكرسي » التي أصرت على أن أبروزها لها وأعلقها في غرفتها .. حاولت أن أغير مكانها وأعلق بدلا منها صورتها وهي تحضن الارانب الصغيرة ، لكنها رفضت وأصرت بحده وكادت تبكي لذا فلن أثيرها ..

وعلقت الشهادة في مكان آخر ..

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا أتذكر حتى أحسست بيد محمود تهزني وحين التفت اليه أشار الى باب الغرفة فرأيت وجه زهرة هلعا ، وما أن التقت عيناي بعينيها حتى قالت :

ـ سيدتي : شيء ما تحرك في غرفة ريم .. ثم سمعت شيئا يهوي يا لله .. يا لله ..

هل يعقل أن تكون ريم قد عادت ؟ هذا جنون : هذا جنون : صرخت بالخادمة . أكدت لي أنها ليست مجنونة وأن شيئا ما تحرك ..

ثم سمعت صوت شيء ما هوى على الارض .

لكزني محمود كأنه يقول :

قومي واستطلعي الامر ..

لقد تعودت أن أفهمه منذ رحلت ريم وصمت لسانه ـ لقد تعودت على أشياء كثيرة . شيء واحد لم أعتد عليه هو النسيان ، فما زلت أذكر ريم كأنها أمامي .. ما زلت أعد لها سندويتش الصباح .. ما زلت أستقل سيارتي لاصل بها الى المدرسة ثم أعود كأني أوصلتها وطبعت قبلتي الدافئة على أجزاء وجهها . وكأن هذا العمل يعزيني . وكنت أرتاح وأنا أحس بطعم شفتي كالورد بعد تقبيلها ..

وصلت الى غرفتها .

يدي ترتجف :

والمفتاح يضل الطريق الى الفتحة التي صنعت لاجله . وقلبي يخفق : يخفق ، يخفق كأن عربات جيش كاملة تسير بداخله .. ومئات من الافكار .. وأمل مجنون يطاردني .

ترى هل سأرى وجه ريم .

وأخيرا ، أدرت المفتاح الذي أصدر صوتا مبحوحا ، فمنذ سنتين لم يتحرك في موقعه . ودخلت ..

رائحة الحبيبة ريم تلفحني .. تمزقني .. ولهثت أضع نفسي على سريرها أبكي أبكي .. وما زال يهتز فأتذكر انني تساءلت ذات يوم :

ـ أين نمرة هاتف النجار أبو وائل ؟

وانزعتني الخادمة من شرودي وعذابي :

سيدتي « آية الكرسي » هي التي وقعت . وقفزت .. وانحنيت أنتشل الآية التي تهشم زجاجها وأخذت أبكي ـ أبكي دون أن أحس بالزجاج ينغرس في أصابعي فيدميها وحين تنبهت قبلت « الآية الكريمة » فوجدت ورقة بحجم البرواز .

انه خط ريم ..

وذهلت وأنا أقرأ رسالتها الاخيرة التي كتبتها ذلك اليوم :

ـ يا رب .. أموت أنا .. ويعيش البابا .

ولم أعد أعي شيئا .. لقد استجاب لها الله .

غريب الدار

عزالدين الخير

لا الشعر يطفى أحزاني ، ولا الشآم … جفت على شفة القيثار أنغام ٠٠٠
حسبت حبهم سلوى ، ٠٠ وتعزيـة … فاليـوم حبهم ، قهر ٠٠ وآلام ٠٠٠
لم أبن من بيت أحلامي لهم حجـرا … الا انبرى من وجيع البعد هدام ٠٠

. . . .

حملت ذا الهم أجري خلف من سلكوا … معابر الجمر، من حنوا٠٠، ومن هاموا
ومن تمر الليالي عندهم ، حرقا ٠٠ … على الجفون ، فلا ارتاحوا ولا ناموا
أنينهم شاعـر ، في الليـل ، منتحب … ودمعهم ، بمـداد الجرح ، رسـام
يقبّلون الثـرى ، مستشفعين بـه … حتى اذا قعدت أحزانهم ، قاموا ٠٠

. . . .

نسيت منذ متى يا رب لـم أرهـم … عذري اليك ، فان اليوم أعوام ٠٠
في كل ثانية دهـر ، وتهتف بـي … قوافل الشوق: أين الدرب يا شام٠٠
كأن فرقتهم عمـري ، وما سـلفت … من الليالي ، خيالات ، وأوهام ٠٠
كأننـي لـم أعش الا لاتركهـم … من قال يا ناس: ، يجرى العدل قسام؟!
أشتاق ؟! كم تستحي من نفسها لغتي؟! … يا نزفة القلب ،لن يشفيك حجام٠٠

. . . .

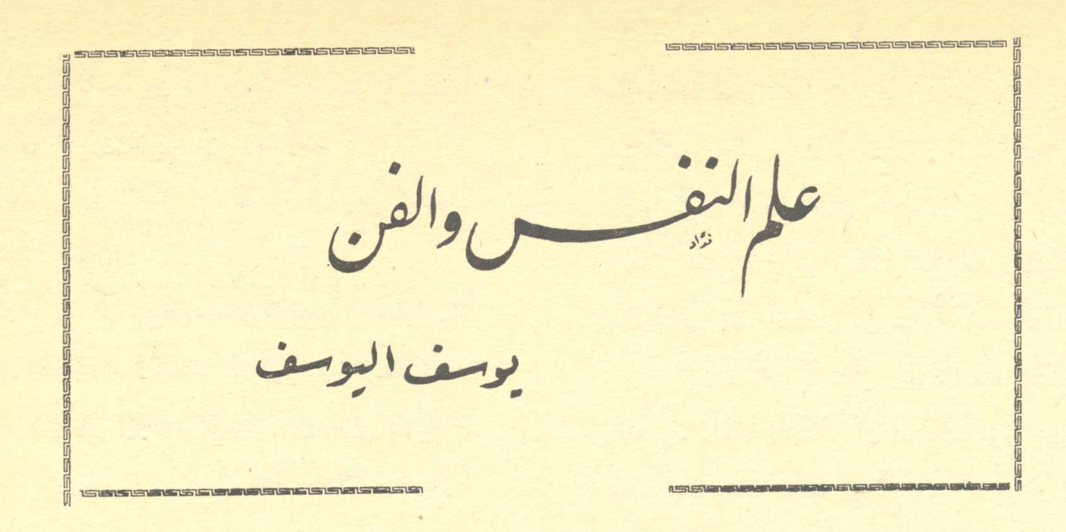
هبـي علي رياح البحر تحمل لي٠٠ … صبابة من شذى الاحباب أنسـام ٠٠
وأطيفـا كعصيـر الكـرم ، زاهيـة … لها على القلـب تهويم ، والمام ٠٠٠
تأتي الـي بأحلامـي، وتهجرنـي … عند الصباح فليت العمر ،أحلام ٠٠

. . . .

لهفي عليك ، غريب الدار ، لاوطن … في مقلتيك ، ولا للزهر أكمـام ٠٠
تفتق الورد عن جمر ، وعن لهـب … فاليوم ورد الهوى ،شوك وأسقام٠٠
مشاعـل تلتقي عنـدي حرائقهـا … ويغرف العمر من قلب الاسى جام٠٠
لو يعرفون عذابـي بعدهم حزنـوا … هم بقلبي ، وان صدوا ، وان لاموا
تفـرق القلب في شـتى مسالكهـم … فاليوم قلبـي أشـتات وأقسام ٠٠
للنازحين طريـق يهتدون بـه … وليس لي في طريق العمر ، أعـلام

. . . .

يا نائي الدار ، والاحباب هاك يدي … بيني وبين شتيت الشمل أرحام ٠٠٠
تـذوب في البعـد أرواح وأفئـدة … وتفتدي في يباس الصخر، أجسام ٠٠
الساكنون بقلبـي ظالمـون لـه ٠٠ … كم رف في قلبي المحروق ، ظلام ٠٠
والعمر لحظة حب ترتدي أبـدا … من الخلود ، وباقي العمر ٠٠ أيـام



لن يجد أي منهج نقدي ذو صبغة نفسانية مسوغا يبيح له أن لا يعرض لا طروحات مدرسة التحليل النفسي ، التي قد تكون أكمل نظرية في مقدورها أن تحدد المنبجس النفساني للفن . ففي قناعتي أن مرتكزات هذه المدرسة تحتاج الى مناقشة وتمحيص .

في صلب نظرية الفن التي يتبناها الفرويديون أن النتاج الفني لا يعدو كونه « فائض كبت » ، وهذا يتضمن أن الفنان انسان عصابي يعبر بالرموز عن عقده اللاشعورية وعن رغباته المقموعة . وهو ، اذ يفعل ذلك ، انما يحاول أن يشبع في نفسه تلك الصبوات والحاجات الاولية التي قمعتها الثقافة . فالنفس الفنانة تقوم بتجيير المكبوتات اللاشعورية عبر عملية التسامي والتصعيد الى رموز وصور فنية الصوغ ، وبذلك تاتي العملية الابداعية بمثابة نهج يسلكه اللاشعور المشحون او المضغوط ابتغاء التخفف من انفعالاته ، وابتغاء افراغ التوترات عبر هذا التعويض عن الاشباع الحقيقي للرغبات .

وفي قناعتي أن دحض نظرية فرويد ابتغاء تصحيحها يتوقف ، بالدرجة الاولى ، على تحليل أكبر الاعمال الفنية واثبات خلوها من العصاب ، والاهم من ذلك ، اثبات ما فحواه أن شعبة كبيرة من الفن انما تنزع نحو معانقة أبعاد خيالية سمتها الاساسية الجمال الصرف ، وأحيانا الجمال الذهولي أو الانخطافي ، أي أن هذه الشعبة تعمل لحساب غريزة الفرح ، وأن شعبة ثانية تنزع نحو التعبير عن واقعها الاجتماعي وادانته بوصفه عدوانا على أصالة النفس لا يتسم بأي سند من أسانيد العقلانية . ونحن نرى أن الفن ـ معظمه لا كله ـ قد سار عبر التاريخ على هذين المحورين : النزوع نحو الابعاد الجمالية للوجود ، والاحتجاج ضد القهر الذي تمارسه الحضارة على الروح ، وبالتالي مطاردة الجمال والسعادة من حيث هما جماع ذلك العنصر المقصى من الواقع . وهذا يعني أن الفن ليس مرضا ولا نوما ، بل هو عافية فوارة وافاقة نجلاء تحتقب الاحساس العميق والموجوع بضرورة استعادة الفردوس المفقود في خضم الحضارة القمعية .

لا يملك أي فهم لطبيعة الانسان ، ينظر اليها نظرة سابرة وشمولية ، الا أن يصطدم بنظرية فرويد ، على الرغم من أنها تأخذ العنصر التاريخي في الحسبان . فهذه النظرية التي ترى في الفن نتاجا للعصاب وتعويضا خياليا عن رغبات زجرتها الثقافة السائدة ، تبدو وكأنها لا ترى في الانسان سوى « آلة جنسية » . وفي قناعتي أن الايمان

بالاطروحة الفرويدية الاساسية الرامية الى أن اللاشعور يحكم السلوك ضلالة لا بد من تصحيحها • فمثل هذا الايمان يفضي الى خطأين لا بد من ارتكابهما :

أولا – اغفال دور العقل أو الشعور في توجيه السلوك (بما فيه التشكيل الفني) •

ثانيا – ارغام الناقد على البحث عن الاسس اللاشعورية للصور والاشكال الفنية ، وكذلك التنقيب عن العقد النفسية التي قد لا يمكن ايجادها في معظم الاعمال الفنية •

كما أن التنكر لمقولة اللاشعور ضلالة أيضا • فاللاشعور ، بكل توكيد ، يلعب دورا هاما في التحكم بالسلوك • وفي ظني أن هذا الجانب الخبيث من شخصيتنا يستطيع أن يتخارج مبطنا على الرغم من كافة قوى الزجر الموجهة ضده ، سواء أكانت قوى الرقابة الخارجية أو الذاتية • وهو لا يتخارج في أي قطاع من قطاعات حياتنا مثلما يتخارج في الفن ، حيث يستتر داخل الياف الصور الكتيمة والرموز شبه المعماة ، أو الاشكال التي تبدو بسيطة وساذجة في بعض الاحيان •

ولكن المحتويات اللاشعورية قد لا تبلغ حد العصاب في معظم الاحيان • بل يغلب أن يكون الوجع شعوريا في أكثر المبدعات الفنية ، ولا سيما في الشعر الغنائي الذي يندر ألا يكون واعيا بنزعته الجمالية البعيدة عن العقد النفسية والفقيرة بالعقد النفسية أيضا • وهذا يعني أن معظم الاعمال الفنية الصادقة لا تتقوم أساسا بما فيها من عصاب ، بل هي تتأسس ابتداء من حاجتين مركزيتين : الحاجة الى الجمال والعشق ، والاحتجاج ضد عدم استتباب الحرية •

ومنذ مطلع القرن الماضي أكد غوته أن ابداع الفن اجراء فيه من اليقظة أقل مما فيه من التهويم اللاارادي • ولكننا نزعم أن هذا التهويم ليس بالضرورة من انتاج اللاشعور والعقد النفسية • بل نحن نزعم أن الفن من صنع الشخصية بشطريها الشعوري واللاشعوري معا • وبقدر ما تشدد المدرسة الفرويدية على دور اللاشعور في انتاج الفن ، فاننا نشدد على دور الشعور في صوغ المبدعات الفنية ، على الرغم من أن الشعور نفسه قد يكون ذا طابع تهويمي • وبايجاز ، ان الشعوري – وان لم يكن من طبيعة تجريبية – يشكل جزءا كبيرا (وفي بعض الاعمال يشكل الجزء الاكبر) في العمل الفني ، في حين يشكل اللاشعوري بقية العمل ، وكثيرا ما يختفي هذا العنصر من ساحة المبدعات الفنية •

اذن ، نحن لا ننكر وجود العقد النفسية في الانتاج الفني ، مثلما لا ننكر أن اللاشعور خبيث ويستطيع أن يدس محتوياته خفية في ألياف الصور والاشكال الفنية ، بل هو يتحكم بلغة العمل الادبي في كثير من الاحيان • وفي قولنا أن للاشعور دورا في تسيير السلوك اضمار فحواه أنه لا يستأثر بالتسيير وحده ، بل يشاطره الشعور وظيفته القيادية ، والاكثر من ذلك أن معظم الدور القيادي يستأثر به الشعور • ولهذا فاننا نزعم ما فحواه أن غالبية الاعمال الفنية قد لا تنطوي الا على اليسير من المحتويات العصابية والعقد النفسية المبثوثة خفية وبمهارة وخبث داخل ألياف العمل الفني •

وبايجاز ، ان اللاشعوري ، في الغالب الاعم ، هو الثانوي والاضافي داخل الاعمال العظيمة ، على الرغم من وجوده الدائم في غالب الاعمال • ولهذا يستسيغ العقل فكرة يونغ القائلة بأن الفردي ، أو ما يخص الفنان وحده ، هو العبء الاكبر على العمل الفني • والاهم من ذلك أن المحتوى النفساني الموجوع للكثير من الاعمال الفنية غالبا ما يكون شعوريا • فالسياب والمتنبي يعيان تماما أعماقهما النفسية المعطوبة • ان كلا منهما يدرك عقدته النفسية تمام الادراك • فالاول يدرك الرض الذي خلفته على روحه وفاة والدته ، والمتنبي يعرف أنه يتحرك بفاعلية الرغبة في التفوق ، هذه الرغبة التي تنطوي على حس الدونية والشعور بالاضطهاد ، ولاسيما انخفاض المكانة الاجتماعية وهذا كله واضح في شعره •

وباستثناء نظرية كارل غوستاف يونغ ، لا توجد نظرية نفسانية أخرى تستحق المناقشة يطرح هذا المحلل الكبير ما فحواه أن الفنان « انسان جمعي » ، فهو أداةيحقق الفن أهدافه من خلالها • ومن الواضح في ذهني أن هذه النظرية متأثرة بنظرية هيغل في الزعيم أو البطل : الزعيم أداة « الفكرة » تستخدمه لتكشف ذاتها من خلاله • والفكرة كلية في فلسفة هيغل ، أي جمعية وفقا للمصطلح اليونغي• وبالمثل ، في رأيي ، أن مقولة « اللاشعور الجمعي » التي طرحها يونغ هي تحويل لمقولة « روح شعب » الهيغلية • وأيا ما كان الشأن ، فان رأي يونغ أن الفن تعبير عن اللاشعور الجمعي ، « أي عن بنية النفس الاصلية الفطرية التي تمثل رحم الشعور وشرطه المسبق » • والصور الفنية تحمل في داخلها خواص الحالة النفسية للانسان البدائي بحيث تبدو وكأنها « تؤلف مقاطع من عقيدة سرية قديمة»• ولكنني أزعم أن هذا الفهم تنقصه الشمولية والاحاطة بمجمل الفن •

لعل مأثرة يونغ الرائعة أنه رفع العصاب عن الفنان ورفض أن يكون الابداع من نتاج العقد النفسية ، ورأى أن العامل الشخصي عبء على العمل الفني ، وأن كل فن يسيطر عليه هذا العامل يستحق أن ينظر اليه من حيث هو عصاب أو مرض • ويؤكد يونغ في مقالته الرائعة ، « علم النفس وفن الشعر » ، ما فحواهأن العمل الفني لا يتقوم بخصائصه الفردية ، بل بعامل أهم من ذلك ، وهو علوهعلى ما هو شخصي وتدفقه فيالكيانالنفسي للمتلقي كيما يخاطب عقل الانسانية الكلي •

وأكد يونغ أن أهواءنا تدور ضمن قطاع الشعور ، أما الرؤيا الفنية فانها تعاني ما وراء هذا القطاع • فهي ، اذن ، ليست عرضا مشتقا من أهوائنا أو رغباتنا المزجورة، وليست مرضا طارئا ، « انما هي رمز حقيقي ، أو تعبير عن ماهيات غامضة » • وذهب هذا العبقري الى أن السمات النفسية للفنان قد تصلح أساسا لتفسير بعض الخصائص الفنية لاعماله ، ولكنها لا تستطيع أن تفسر هذه الاعمال •

في زعمي أن هذه النظرية مشروخة من الداخل فهي تشدد على أمرين متعارضين ، أولهما أن الفن تعبير عن اللاشعور الجمعي المليء « بالصور البدئية » و « الانماط العليا » ، وثانيهما أن الفن تعبير عن « ماهيات غامضة » قريبة من المعاناة الصوفية •

ولعل أهم مسألة يمكن أن تثار ضد هذه النظرية هي خلوها من أية سمة تاريخية تضفى على الفن • ان مقولة اللاشعور الجمعي ، التي تتنكر تنكرا تاما للصيغة الجدلية للنفس ، هي مقولة عقيمة ، ولا نملك الا أن نستبدلها بمقولة جدلية هي اللاشعور الاجتماعي ، وهذا مفهوم يرى النفس متحركة بتحرك شروطها التاريخية والبيئية • ان تقوم الفن بمحتويات اللاشعور الجمعي لا يقل اشكالية عن تقومه بالمحتويات العصابية للاشعور الفرويدي • وبينما يحاول يونغ أن يقضي على المشكلة التي أثارها فرويد فانه يخلق مشكلة جديدة من شأنها تضييق مجال النقد التفسيري للفن • وفضلا عن ذلك ، فان نظرية يونغ تنقصها النظرة الاجتماعية الى الفن ، فكأنما الفنان يعمل خارجالتاريخ • وهذه مثلبة أجتنبتها مدرسة التحليل النفسي التي أرجعت العصاب الى جذور حضارية •

وتبقى مأثرة يونغ في مضمار فلسفة الفن والنقد الادبي ماثلة في نقطتين :

أولاهما أنه رفع العصاب عن الاعمال الفنية الصادقة •

وثانيتهما أنه رأى في العمل الرفيع مخاطبة لعقل البشرية جمعاء •

وفي رأيي أن هذه المخاطبة لا تتم بسبب من كون المبدع الفني يتألف من محتويات اللاشعور الجمعي ، بل لأنه يعبر عن الهموم التي يفرزها تفاعل البشرية مع الحضارة • فلو كانت مقولة اللاشعور الجمعي ذات طابع تاريخي لصحت أطروحة يونغ ، ولكنها ثابتة ومجردة ، اذ هي تنظر الى البشرية وكأنها بلا تاريخ • ولعل هذا أن يكون العامل الاساسي الذي أسقط نظرية يونغ وجعلها مذهبا خامدا ابان عصر لا يهمه شيء قبل استقلاب التاريخ •

واذا كانت النظريتان (فرويد ويونغ) عاجزتين عن استيعاب ماهية الفن ، فان نظرية ثالثة لا بد لها من أن تقوم على أساس نفساني • وأقول على أساس نفساني لان الفن نتاج مباشر للنفس ، وهي بدورها المشروطة بشرطها التاريخي ، والمبنية انطلاقا من معطيات هذا الشرط ، الشيء الذي يجعل الفن انتاجا لا مباشرا للواقع الموضوعي• وينبغي على نظرية الفن أن تهتم بنفسانية الخيال ، أعني بآلية حركته وبكون غايته محاولة لاشباع نقص صميمي في الروح البشري • ان الفنان حين يعيد صياغة الموجودات وحين يتخطى المحسوسات باتجاه عوالم جمالية مجردة لا تواجد لها خارج اطار الخيال ، انما يبرهن على امكانية قيام جمال غير حسي ، جمال لا يطال الا بقوة تقع فوق الشعور ، لانه بذلك يكمل النقص الماثل في المحسوسات • اننا لا نكتفي بالجمال القائم موضوعيا ، بل نحن نتخطاه باتجاه جمال مجرد مبتكر • ومثل هذا الاجراء الباطني لا يستطيع المفهوم ـ الذي يبجله الفيلسوف الالماني هيغل أيما تبجيل ـ أن يقوم به • ان المفهوم يصدر عن الوقائع ، اما الجمال المجرد فيعلو عليها • ولذا ، فقد أخطأ هيغل حينما وضع الفن في أسفل سلم المعرفة ، وحينما وضع المفهوم ، فوق الصورة الفنية ، على عكس سلفه الالماني كانط الذي رأى في الفن أرقى سبيل للوصول الى الحقيقة• ان الفنان سادن الحقيقة الاول ، اذ الفن يقحم على الواقع ما كان قد أقصاه الواقع عن سابق عمد واصرار • فهو يرفع التحريم عن المحظورات ويطالب بعودة العناصر الغائبة •

غير أن نظرية الفن يمكن أن تستمد من هيغل ، ومن ورثته الماديين ، بعدها التاريخي • ان النفساني لايتكامل اذا ما أهمل البعد التاريخي للفن • لقد استطاع التيار الجدلي أن يرى السمة الاجتماعية للشكل الفني • فكل شكل هو من نتاج لحظة معينة من لحظات التاريخ • وهذا يعني أن برهة تاريخية ما لا يسعها الا أن تنتج أشكالها هي ، وليس في مقدورها أن تصوغ أشكال اللحظة التي تليها •

ولعل الخلل المركزي في نظريتي فرويد ويونغ هو قصورهما في مضمار ربط النفساني بالاجتماعي ، وهذا القصور يقبل التدارك عبر اللجوء الى ثراء التيار الجدلي في الفلسفة • وفي قناعتي أن حركة النقد في الثقافة العربية المعاصرة ستظل مقصرة عن غاياتها المرجوة مالم تربط البعد النفساني للفن ببعده الاجتماعي • اذن ، على كل حركة نقدية تنزع نحو التمنهج والتكامل أن تؤسس مقولاتها وعلاقاتها الفلسفية والنفسية التي ترسي على أرضيتها أحكامها المعيارية • واذا لم يكن لهذه الفرشة الفكرية صلة وثيقة بالنظرية المعيارية ، فانها لن تكون ضئيلة النفع لهذه النظرية ، لانها ـ بالضرورة ـ ستمارس الاخصاب على عقل الناقد ، اذ ستوسع اطار بصيرته بسبب من كونها تعمق في وعيه ماهية المادة التي يتعامل معها •

العصيان ضد السد

مصطفى الخش

نور تخطف منه البصر . فتح عينيه ثم أغمضهما . غاص في لذات حلم جميل . حملق بعينيه ثانية . اختفى النور . كاد لا يصدق ما رأى : أهي بنفسها أم أنها شبهت له ؟ رجحت كفة الحقيقة ، فالباب مفتوح ، وقد أحكم اغلاقه عند النوم . الشمس تسدد رمحا نورانيا وتغمده في وسط الغرفة المعتمة ، جعلت أجفانه ترف فهفت نظراته نحو الباب ، على غير طائل . عيل صبره . هب كالملسوع . أيقظ خادمه ، بتؤده ، همس في اذنه . عاد الى فراشه . مسه الحذر بالرؤيا فود أن يشنف أذنيه بالخبر اليقين .

فتح الخادم الباب على مصراعيه اشتعل الضياء في جوانب الغرفة وامتد الى أحمد قبس منه . كانت واقفة الى جانب الباب وبينهما ركوة القهوة ، وقد علا وجهها ورس شديد . هب عليه نسيم من الهواء الطلق لمرآها الصبيح .

ولكنه تظاهر بالغضب فقطب ما بين حاجبيه :

ـ لم دخلت الغرفة ؟

ـ لم أدخلها

ـ الباب مفتوح ومثلك من لا تكذب .

استعادت وجنتاها حمرتها القانية ٠

ـ ألديك بئر للسر عميقة ؟

ـ بـلى ٠

وكرقرقة الماء في الساقية :

ـ ولجت الغرفة لا تعرف عليه ، بحجة تقديم القهوة ٠٠٠ كان نائما يعلو محياه البشـر ، وكأنه يبسم لي ٠ انحنيت استرق منه قبلة ٠ فلما استيقظ انكفأت ٠

وبفظاظة رجل الامن المتعجرف ٠

ـ بماذا تفسرين هذا العمل ؟

وببراءة الاطفال ٠

ـ التفسير عندك٠ لقد أضحيت صريعة حبه ، مذ أقبل علينا ، عصر البارحة ، يسابق الريح بفرسه ٠ بـدا لي فارسا مغوارا ٠

استلت من صدرها سيجارة فاشعلتها ودخنتها قليلا ، ثم مدت يدها ببنان ، يمكن عقده من فرط اللدونه ٠

ـ اعطها اليه ٠ لعله أن يكملها : عربون حب ٠

حاول ألا تفوت عليها الفرصة ولكنها رشقته بسهام لواحظها :

ـ الغد لناظره قريب ٠

هاجت بلابل صدره ٠ جعل يعد في نهاره الثـواني والدقائق والساعات ٠ كان مرهف الحواس ، كالهر ، عيناه شاخصتان وأذناه تسترقان السمع ٠ وقف في عتبة الغرفة ، على غير جدوى ٠ وتنقل بين أزقة القرية ٠ وتمهل عـلى طريق العين : الصبايا يملأن الجرار ، من دونهـا ، أغفى طرفه ، فلم يخفق قلبه ٠ حاشا أن يكون لهن مثل جمالها ٠ أرسل تنهيدة حارقة :

ـ القلب يخفق مرة ولن يخفق مرتين ٠

أقعى ، يروي الماء بجماع كفيه ٠ كانت روحه ظمأى، وبلابل صدره تريد أن تصدح ٠ كان جل مبتغاه أن يتزود منها بنظرة ٠ آذنت الشمس للغروب ٠ الشمس أكثر بهـاء فوق القمم ٠ حملق يرقب موكبها ، وهي تتهادى من عليائها لتعانق البحر وتختفي بين طياته ٠ أنذره الليل بخيبة الامل فطوى جانحيه وتزمل بالصبر ٠ ولكي يداري فورة الغيظ ، في داخله ، أطلق صمام الامان ٠

ـ الموعود غير محروم ٠

خفق قلبه للقاء آت لا ريب فيه ٠ وطـول شـوقه اليه ! طرح سؤالا كمن يتكلم من أعماقه :

أين ؟ ومتى ؟

حطت غيمة كثيفة فوق رأسه ٠ كاد ينكر ذاته ، في حفلة العشاء ٠ كان منقبضا أشد الانقباض وحزينا حتى الموت ٠ تحلب حوله أعيان القرية ، يتملقونه ويحيطـونه بالحفاوة والتكريم ٠ مثله مثل هارون الرشيد بين حاشيته٠ تعالى الرباب وصدحت أصوات المغنين بالعتابا والميجانا ٠ كالوا له المديح بأشعارهم ٠ عبثاحاول أن يتظاهر بالغبطة٠ فلم يرد عليهم الا لماما والبسمة على شفتيه مغتصبة ٠

زاد في بلباله أنه راحل عما قريب ٠ ود محـالا أن يتطاول الليل ،ليظل قريبا منها وتظل قريبة منه ، ولو أنه لا يراها ، ولو أنها لا تراه ٠ تغضن وجهه بالكآبة ، بينمـا علت النشوة وجوه الحاضرين للمأكل اللذيذ والصـوت الطروب ٠ الطعام الجيد يعادل المتعة الجسدية ٠ هالصاحب الدار أن ضيفه على غير ما يرام ٠ تنحنح قبل أن يسأله :

ـ أترانا قصرنا بالواجب نحوك ، يا ابن الاخ ٠

ـ لا يا عماه ٠ الخير كثير ٠

ـ العين قد تخطىء ٠ ولكني لا ألمح الرضى في عينيك٠

أرتج عليه ٠ دل على التهمة بنفسه ٠ وضع كفه على عينيه لسترهما ٠ المحب تفضحه عيناه ٠ خشي أن تنفـرا بالدموع فتسلل ، بخفة القط ، الى الخارج ٠ في اندفاعه ، كالسيل ، ارتطم صدره بصدرها ٠ المفاجأة أفقدتهما الوعي فتسمرا ٠ تسرب الى كيانهما خدر لذيذ ٠ استشعر العافية

فاغفيا . تنبها عندما وقف الخادم فيصلا بينهما . انكفأ الى الداخل . وقف له الحاضرون اجلالا . تدفق دم الانشراح في جسده . صافحهم فردا فردا أحس بحرارة عناق مضيفه فاكب لتقبيل يمينه مستأذنا بالعودة الى بلده .. كان الليل في الهزيع الاخير .

تطامنا منذ اللقاء الاول . جن بهـــا وجنت به . ربطهما الحب بحبـــل من مسد وجاهدا أن يخفيـــاه . وكالكيس الذي لا يحجب الرمح ، برزت علاقتهما في أعين الناس . سرى اليهم الخبر سريان النار في الهشيم . تلقفته القواعد الجماهيرية بالاعجاب . قالوا : انه ذواقة للحسن وقالوا : انها أحسنت الاختيار . ونطق الكائدون بالحكمة : « الامور مرهونة بنتائجها » . توقعوا أن تجري الريـــاح بما لا تشتهي السفن .

الغلبة للكيد في المجتمعات المتخلفة . شـــده والده بحزام أحمر . التقاليد لا تجيز هذا الزواج . الطائفتان أبناء عمومة ولكن العداوة بينهما نار يتأجج سعيرها . من يلعب بالنار تحترق يداه .. تململ في الاسر ، كعصفور في قفص . تسربت محاكمة عقلية الى داخله . نصب نفســـه مدعيا شخصيا ، وهيأ للدعوى أسباب الادعاء . لا اكراه في الزواج . وان له حق الخيار . والده لا يريد به شـــرا ، ولكن الشر يكمن في عقليته . راق له أن يدافع عنه ، لكي يمنحه أسبابا مخففة للعقوبة . والده عبد التقاليد مثلما هو عبده . العبد يستعبد . التقاليد سد منيع ضد التقارب والتفاهم . ردد بسخرية مقولة سمعها على لسان والده :

ـ الدين لله والوطن للجميع .

كز على أسنانه ، يطحن كلماته طحنا :

ـ بالتحابب والتكاتف يشتد ساعد الوطن لا بالتنافر والتباغض .

انزاحت خيوط سوداء أمام ناظريه ، فشمر عن زنديه كمن يريد أن يصاول خصمه :

ـ لا بد من اختراق هذا السد .

وبصوت ضعيف كأنه صادر من بئر عميقة :

ـ لقد قررت العصيان .

أسر الى حبيبته ، بدون أية مقدمات .

ـ أوتقبلين بالهرب معي .

انتفضت ، كمن مسه سلك كهربائي . وبعد أن أفرخ روعها :

ـ أنا لك فافعل بي ما تشاء .

أتاح لها فرصة التفكير فضرب لها موعدا ، قرب النبع ، بعد العشاء . ألفاها أشد عزما مما كانت عليـــه . تأبط ذراعها وانطلقا بين الاحراج والادغال . وقفا أكثر من مرة يتأملان الجبال والسهول وقد غمرها سحـــر الليل البهي ، وأغرقها ضوء القمر اللطيف . تسربلا بالطمأنينة والحبور ، فلم يشعرا بالتعب ولم يكترثا لبعد المسافة . وصلا منزل جده بعد مسيرة ساعتين .

نفذ ببصره من وراء ثقب بالباب . رأى جده وحوله أبناؤه الكبار يسمرون . ظل برهة لا يتحرك ولا يطرف . تناوشه دوار من الفكر وطرق ذهنه احتمال مريب : مـــاذا يجري لو امتنع جده من ايوائهما ؟ بل ماذا يجري لو شاع الخبر ؟ أفلا تتعرض حبيبته الى التهلكة ، الى الذبح ، علـى يد شقيقها ووالدها ومعهما بنو عمومتها وخؤولتها ثم أفلا يشمت بهما الشامتون ؟ وطن في أذنيه صوت العقل : أفيضلك الهوى فتتبعه وتعمى عما حولك ليحط من قدرك ؟

تزمل بالحكمة فاجتاحته عقدة الذنب . غمره شعور بالضعة ، كضفدع صغير في حوض آسن ، وترعش ، كعصفور بلله الماء ، وكمن كان في ذهول ثم ثاب الى رشده ، فقـــد انتهز صحوة التفكير ، فضغط على يدها وعادا من حيث أتيا ، يحثان الخطا أكثر من ذي قبل ، ولم يفترقا الا عند النبع .

وفي طريق عودته الى بلده ، عوى تنين التقاليـــد في صدره ، فردد معه العواء :

ـ الزواج علانية .. ومعه طبول الافراح !..

مصياف — مصطفى الخش

دلال

مصطفى عكرمه

كنا .. وكان صمتنا غزلا ... نزرع شطآن المنى قبلا
ونملأ الدنيا على رحبها ... حبا .. ونغمر المدى أملا

ما أبصرت أعيننا منظرا ... الا اكتسى من زهونا حللا
يا فتنة النفس ويا أنسها ... ويا رجاء هل مكتملا

أيقظت ما نام وما لم يفق ... بعد ... وقربت الذي ارتحلا
في لحظة .. يا طيبها لحظة ... شئنا .. فعشنا الحب مختزلا

لا تسأليني بعدها من أنا ... يجرح كبر الحب من سألا
لم تعرف الارض ، ولو غرسة ... أعطت بيوم غرسها أكلا

كنا ... وضاعت عن فمي بسمة ... تلف في أذيالها الخجلا
دللتني أكثر من حاجتي ... ان الدلال يفسد الرجلا

جلال الدين الرومي

رؤية جديدة للعشق

احسان محمد جعفر

ولد جلال الدين محمد الرومي أعظم شعراء التصوف الفرس الملقب بمولانا سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) في مدينة بلخ حيث كان والده محمد بن حسين الخطيبي المعروف ببهاء الدين ولد على نصيب كبير من العلم والجاه مما جعله يتبوأ مكانة مرموقة في بلاط السلطان محمد خوارزمشاه (٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ) ، ويذكر الرواة أن هذا السلطان داخله منه حسد ، فترك بهاء الدين بلخ مصطحبا أسرته ، ويروى أنه بينما كانوا مارين بنيسابور لاقوا الشاعر الصوفي الكبير فريد الدين العطار الذي بشر بهاء الدين بمستقبل عظيم لابنه ، ودعا له بالبركة وأهداه نسخة من كتابه « الاهى نامه » وهو منظومة صوفية طويلة ..

وذهبت الاسرة الى الحج ، وبعد ذلك استقر بها المقام في ـ قونية ـ ببلاد الروم ـ الاناضول ـ ، ومن هنا جاءت تسمية جلال الدين بالرومي .

وقد تلقى العلم في باديء أمره على والده ، ثم أخذ التصوف عن الشيخ برهان الدين المحقق الترمذي ، أحد أصحاب أبيه ، الذي لقنه أصول هذا العلم .

ولما توفي والده سنة ٦٢٨ هـ خلفه في التدريس وانكب بكليته على دراسة التصوف ورحل الى حلب ودمشق حتى يتبحر في العلم ٠

ثم كان حدث غير وجهة جلال وأثر في نفسه أثرا بليغا ، ذلكم الحادث العجيب هو لقاؤه بشمس الدين التبريزي المعروف بلقب ـ براونه ـ أي الفراشة ، وكان قد جاء الى قونية سنة ٦٤٢ هـ ، وذلك ان مرشده الروحي ركن الدين أخبره في تبريز بأن في أرض الروم صوفيا يتألق بالحب الالهي وان عليه أن يرحل اليه وينفح في هذا الحب المتقد حتى يجعله شعلة نيرة ، فرحل شمس الدين في التو الى قونية وبحث عنه حتى وجده ، وصار له عليه تأثير كبير وأصبح مرشده ٠٠

فأخذ جلال الدين يهجر درسه ويأنس الى التبريزي ، ويخلو به ويسايره في المتنزهات ٠ ورأى تلاميذ جلال الدين أن هذا الضيف العجيب أخذ يستبد بأستاذهم ، ويصرفه عن سبيله ، فثاروا على هذا الدرويش متهمين اياه بالسحر واضطروه الى أن يهرب ٠٠

غير ان هذه الزيارة نجم عنها أن جلال الدين اعتزل التدريس ورهن نفسه للتصوف ٠

وفي هذا الوقت نظم جلال الدين عددا من المنظومات الصوفية بغرض الانشاد في الذكر الصوفي الذي ابتدعه ويؤدى على نغمات الناي اذ للناي مكانة وحرمة بين المولوية، وقد افتتح جلال الدين نفسه كتابه « المثنوي » بحديث الناي، فوصفه مبينا أثره في نفسه ، وقد ترجم عبد الوهاب عزام هذه القصيدة الى العربية شعرا فيما يلي نقتطف بعضا من أبياتها الخمسة والثلاثين :

استمع للناي غنى وحكى
شفه البين طويلا فشكا
أين صدر من فراق مزقا
كي أبث الوجد فيه حرقا
ان صوت الناي نار لاهواء
كل من لم يصلها فهو هباء
هي نار العشق في الناي تثور
وهي نار العشق في الخمر تفور

وكانت هذه البدعة ارهاصا لطريقة الدراويش الذاكرين المدعوين باخوان المحبة لان أساس الطريقة المولوية ومبدأها الوحيد كان محبة الله ٠

فحركات الذكر ـ ترمز الى دوران الكواكب السيارة حول شمسها المركزية وانجذاب المخلوقات الى خالقها ٠٠٠

ثم ان جلال الدين لم يصبر عن شمس الدين ، فذهب اليه وأرجعه الى قونية ، وتقع ثورة يختفي بعدها التبريزي وتنقطع أخباره ، وتذهب بعض الروايات الى أن نفرا تربصوا به وطعنوه بسكين فصاح صيحة عظيمة أفقدتهم وعيهم ، فلما أفاقوا لم يجدوا غير قطرات من الدماء ، وكثرت حول مصيره الاراجيف والشائعات ٠

ويستمر جلال الدين بعد ذلك في رياضته الى أن يتوفى سنة ٦٧٢ هـ في قونية ، وقبره فيها معروف الى اليوم في تكية أصبحت متحفا يضم بعض مخلفاته ومخلفات أحفاده وكتبا ٠

وأشهر آثار جلال الدين المنظومة (ديوان شمس تبريزي) الذي يشتمل على شعر غنائي بالغ في العذوبة والرقة وتزيد أبياته على خمسة آلاف بيت ، وهي قصائد متفرقة ، اختير لها وزن خاص وقافية ، ومعانيها متشابهة متقاربة أو متماثلة ، وهي فيض في العشق والغناء يكثر فيه الرمز ٠٠٠ و (المثنوي) وهو منظومة صوفية فلسفية ، تحتوي خمسة وعشرين ألفا وسبعمائة بيت ، في ستة أجزاء على بحر الرمل المسدس المقصور ، وقد سمى الرومي كتابه « المثنوي » ، وهو اسم هذا الضرب من القافية التي تسمى في العربية المزدوج ٠ سماه هذه التسمية اللفظية كما سمى أبو العلاء كتابه اللزوميات باسم لفظي محض ٠

وكان تلميذه حسام الدين قد اقترح عليه نظمه ، وقد شرح ـ المثنوي ـ كثيرا بالتركية والفارسية والعربية، وطبع شرحه العربي سنة ١٢٨٩ هـ ٠

وتتخلل بعض فصول المثنوي أحيانا أشطار وأبيات عربية خالصة ، ولا يخلو فصل من هذا الضرب ، كما انه صدر كلا من الجزء الاول والثالث والرابع بمقدمة عربية ٠٠٠ ويحتوي المثنوي على حكايات وقصص رمزية وأمثال وخواطر الغرض منها شرح المذهب الصوفي المولوي وايضاحه والدارس لهذا الكتاب يرى أن جلال الدين يستعمل صورا متعددة مبتكرة جامعة بين رشاقة الصنعة وجلال الروح شديدة العمق في عاطفتها وفي فكرتها ، وموضوع المثنوي كل لا يتجزأ وهو حب الروح لله مصدرها وكيف تعود اليه؟ ومقدمة الجزء الاول تتحدث عن النفس التي تشكو انفصالها عن الله ٠٠

وقد شرح جلال الدين آراءه في المسائل الفلسفية والصوفية والدينية والاخلاقية في أكثر من اثنين وسبعين ألف بيت ، في المثنوي والديوان ، ويتعذر على الباحث أن يجمل آراءه ولو في المسائل الكبرى ، غير أنني سأعرض لبعض جوانب هذه الآراء ، فالذات الالهية كما يتصورها جلال الدين حالة في الكون وداخلة في جوهره ، وليست مجردة عنه ٠ فهو يقول في المثنوي :

يا خفيا قد ملأت الخافقين
قد علوت فوق نور المشرقين
أنت سر كاشف أسرارنا
أنت فجر مفجر أنهارنا
يا خفي الذات محسوس العطا
أنت كالماء ونحن كالرحا
أنت كالريح ونحن الغبار
تختفي الريح وغبراها جهار

ثم يسترسل الرومي في أبيات فارسية ترجمتها كالاتي :

« أنت كالربيع ونحن في نضارة الروضة المخضرة ، والربيع مختف بينما فضله واضح لكل بصر ٠ »

« أنت كالروح ونحن كاليد والقدم ، وقبض اليد وبسطها من عمل الروح ٠ »

« أنت كالعقل ونحن مثل لسانه ، وهذا اللسان يستمد بيانه من العقل ؟

وفي شرحه لكنه الروح يعتقد أنها في الاصل الهية ، وأنها كانت في البدء متحدة مع الحقيقة العظمى :

« كنا جوهرا واحدا مثل الشمس ، كنا بلا عيب وكنا في صفاء الماء ٠ »

وقد حجبت الشمس الالهية نفسها عن الانسان حتى يتجلى الموجود الخالص في المعدوم اذ ان الشيء لا يتجلى الا في ضده فالنور يتجلى في الظلام والوجود في المعدوم ٠

وهو يتحدث كثيرا كما يتحدث كبار الصوفية عن فناء الانسان ، ويتكلم ، عن زوال الاثنينية ، واتحاد أنا وأنت ٠ وهي فكرة شائعة في شعر ابن الفارض وغيره ، ولكن جلال الدين يذكر فناء العالم في الله سبحانه في صورة أخرى : يرى أن العالم يرقى الى الله ، حائلا في جماد الى نبات الى حيوان فانسان فملك ، ثم يفنى في الله ٠

وقد ذكر بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلي صاحب « الانسان الكامل » ما يؤخذ منه ان الانسان صلة العالم كله بالله ، وهي فكرة جلال الدين في شكل آخر ٠٠ يقول في المثنوي :

صرت ، اذ مت جمادا ناميا
مت نبتا صرت حيا ساعيا
مت حيوان اذا بي بشر
طائرا في ملك لا استقر
ليس لي الا مسير نحوه
كل شيء هالك الا وجهه

ثم أسمو طائرا فـوق الملك

ذاك فوق الوهم لا يخطـر لك

ثم افنى والغنـا كالارغنـون

منشدي : انا اليـه راجعـون

وأما القضاء والقدر فجلال الدين يذهـب فيه الى الاختيار ويشتد على الجبرية ، ومن هنا تتجلى عظمته فهو يرى أن الحياة جهاد مستمر لا ينبغي أن يسكن المجاهـد فيها ساعة ·· يقول في المثنوي في قصة التاجر والببغاء :

« الغريق يجهد نفسه ويضرب يده على كل عشـبة لعلها تنقذه من الخطر · »

« والحبيب (الله) يحب هذا الاضطراب ، وان الجهد الذاهب خير من النوم · »

والحب هو المرتكز والاساس في مذهب جـلال الدين فهو يرى أن في الحب الخلاص من الكبرياء والغرور وانه هو الطبيب المداوي لكل عللنا ، ذلك هو الحب الذي يغفل النفس ولا يذكر الا المحبوب ، والحيـاة الخالدة انما هي بالاغفال التام للحياة الفردية :

« يا حياة العشاق في الموت ، لن تجد قلبا الا بعد أن يحطم قلبك · »

فالعاشقون المخلصون هم كالظلال والظـلال تزول وتختفي حين تشرق الشمس في أبهى نورها ، والعاشـق المخلص هو ذلك الذي يقول له الله « أنا لك وأنت لي » ·»

وبالحب يصير المر حلوا ، ويتحول النحاس الى ذهب ويصفو العكر ويصبح الالم شافيا ويصير الموتى أحيـاء ، والحب هو الحياة السماوية فوق سطح الارض :

« العشق معناه الطيران في السماء ، وتمزيق مائـة حجاب في سبيل النفس · »

ولكن الغرض من الحب الذي يضحي بالنفس الحصول على حياة أسمى ، فانكار الذات يمهد الطريق الى ادراك هذه الحقيقة انه غير موجود الا الموجود الواحد ، أما زينة الحياة ومتعها ومشاغلها فتحجب الحقيقة عن أعين الناس ، وعليهم أن يجتازوا ذلك الى الثمل الروحي الذي ينسي النـاس أنفسهم ويرفعهم الى تجلي الحقيقة الخالدة في صورتها الرائعة البهية ·

وهكذا يصل الصوفي الى هدفه المأمول ويتحد مـع الواحد ، وهذا الاتحاد يرى جلال الدين انه الحصول على الحياة السرمدية ، وحين يظفـر الانسان بالحياة المتحدة لا يعود له أية حاجة الى الشفاعات ، فالرسل والانبيـاء ضروريون لقيادة الشخص العادي الى الله ، أما الانسـان الكامل الذي يسمع الصوت الباطن في داخل نفسه فليس في حاجة الى الكلمات الخارجية ، فهو متحد مع البحر اللانهائي للذات الالهية :

« مكاني هو لامكان ، وعلامتي ليست بعلامة ، ليس هناك لا جسد ولا روح ، لاني جزء من روح الارواح ·»

« لقد طردت الاثنين من نفسي ، ورأيت العالمين عالما واحدا ، وبحثت عن الواحد ، وعرفت الواحد ، ورأيـت الواحد ، ودعوت الواحد · »

« هو الاول هو الاخر هو الظاهر هو الباطن ، ولست أعرف آخر سوى « يا هو » و « يا من هو · » ·

وصفوة القول : جلال الدين الرومي صوفي من أرباب نحلة الاتحاد والحلول ، وهو الى جانـب ذلك من أعاظم الشعراء ، وقد قيل عنه انه بسمو فـكره وعظمة أسلوبه يباري أكبر الشعراء الغنائيين أضف الى ذلك أن وضـوح خياله يكسب شعره روعة ورونقا ·

احسان محمد جعفر

مدرس في ثانوية جول جمال باللاذقية

وجهان للتعب

قصائد

عبد القادر الحصني

الوجه الاول :

مدينة للريح وجهها ،
ومنتهى ٠
يقاسم النـــار التي تغلغلت في ثوب بيدر صغير
غرابة احتشادها في صدره القشي لحظة الزفير ٠
حاورته ،
دخلت في وجومه الكئيب مرة
محطة تصادر الهموم ٠
أخذت في عينيه شكل وردة شـقراء مثل الشمس ،
شكل غابة ٠
وعدته أن نلتقي في ليلة صيفية مبللين بالمطر ،
وصرت في سمائه سحابه ٠
كتبت فيه ما استطعت من قصـائد الفرح ٠
وحينما قرأتها أحسست بالكآبة ٠

● ● ●

منذا يعيد لي التداعي الجميل للاشياء لحظة الشرود ؟!

يخرجني من حقل نجمة غامضة المدار مرهقة الظنون ·

ها ·· شــفتاي قصبة مقطوعة من ضفة بعيدة لنهر بعيد ·

مكوية بالنار ،
صوفية الحنين والجنون ·
منذا يعيد لي ··؟!
وددت لو تكون ·
لكنهــا
مدينة للريح وجهها ،
ومنتهى

الوجه الثاني :

غارق بالذهول وجهها التعب ·

يستعيد الحكايا

المدى رماد بليل ؟!

أم العيون مرايا !!

تغيض فيها السحب ·

• • •

كان ···

قال لي : ···

يأكل الحت من جسد النهر ،

ويرمي أشلاءه في السهول ·

كائن واحد ،

الحت والنهر ·

وجهه وجهي الآخر الجارح الصمت

لا توقظوه ·

دائرة الصحو حقل اغتراب ·

والشمس نبع شظايا ·
يا وجهها رمد المطر

في جفون البروق ،

والنسغ صار هبابا في عروق الشجر

ترى !

من يرتل الآن في جنازة القش غــير

الدخان ·

• • •

غير الرؤى الكابيات ·
غير الضجر ·

يا ··

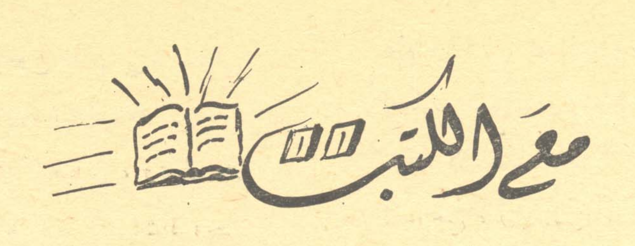
شيء كما السهم في العنق ·

ككل الاشياء التي ارتحلت

ككل الاشياء ··

آخ ·

لا تفكري بالرحيل يا حجاره ·



رابعة العدوية

رابعة العدوية مدرسة وحدها في الحب الالهي ، وفن المناجاة للذات العلية ، انها مسحة خالصة متطورة من الوجد العذري ، والنغم الملائكي ، واللهفة الحائرة على شفتي انسانة معذبة .

يهدي عدنان مردم بك عمله المسرحي الجديد (رابعة العدوية) فيقول : (الى روح الانسانة الكبيرة ، التي آمنت بالله تعالى ، وأحبته حبا خالصا ، سما فوق كل حب ، غير طامعة بثواب أو خائفة من عقاب) .

الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي

ويتحدث عنها في مقدمة عمله المسرحي نغما علويا ملأ الاسماع ، وفتاة عربية خالصة العروبة ، توفي أبوها ، واختطفها أحد اللصوص وهي تسعى في الارض طلبا للرزق بسبب مجاعة حلت بالبصرة ، وباعها بستة دراهم الى أحد التجار ، وفي البصرة عاشت يؤرقها الوجد ويشجيها الحنين ، والبصرة يومئذ (١٢٠ ـ ١٨٠ هـ) أي الفترة التي عاشتها رابعة ، كانت موطن المتصوفين والزهاد ، وكانت كذلك مسرح الزنادقة والشعوبيين واللاهين ، وعملت رابعة زمارة تنفخ في الناي في حانة ابن عمار ، وهي مع ذلك لا تنقطع عن زيارة المساجد ، وسماع قصص الزهاد ، ووعظ الواعظين ، وضج متصوفة البصرة من ابن عمار وحانته ورابعته ، فاشتراها منه ابن زياد من سراة هذه المدينة التليدة ، ثم اعتقها فاختارت كهفا خارج البصرة اعتكفت فيه ، تعبد ربها وتناجيه .

عاشت رابعة انشودة روحية ، تهتف بحب الله ، وينبثق من حبها له للكون بكل ما فيه من ألم وعذاب ، وسمت رابعة بالمفهوم الصوفي ، فأدخلت عليه فكرة الحب الالهي ، وجعلت من حبها مصدرا للكشف والالهام ، ورأت

في المحبة روحا ، تمنح الحياة لكل جزء من أجزاء الكون٠٠ كما يقول الشاعر عدنان مردم بك ٠

ان قصة رابعة لتدل على الطموح الروحي والعقلي الذي كانت عليه المرأة العربية في دورة الحياة الجديدة المتألقة في البصرة في أوائل خلافة بني العباس ، وتدل على مكانة المرأة ومنزلتها التي بوأها اياها هذا التراث الروحي الخالد الرفيع في مجتمع متمسك بقيمه ومثله وآدابه ومنهجه الامثل ٠٠٠ وهي نموذج فريد لا نجد مثالا آخر له بعد رابعة ، وكم بودنا لو كانت المرأة العربية اليوم لها من ذاتيتها وشخصيتها وطابعها وطموحها وتعلقها بالمثل الاعلى، ما كان لرابعة العذرية المتصوفة ٠

وقد اختار الشاعر عدنان لعمله المسرحي هذه الفترة الحرجة الاولى في حياة رابعة فترة الرق الذي فرض عليها، والعمل كمغنية في حانة وقد ألزمت به ، فترة تمزقها النفسي بين خضوعها لسيدها وتعلقها الروحي بالله عز وجل ، وحبها العذري الملائكي لذاته العلية ٠

وألزم نفسه في عمله المسرحي بوحدة الزمان والمكان والموضوع ، وهي الوحدات الثلاث التي حرص على التقيد بها أصحاب المدرسة الكلاسيكية في الفن المسرحي ٠

وتميزت المسرحية بالبناء الفني العمودي ، وان تعددت القوافي والاوزان خلال المسرحية ، لكن النسق الفكري والفني والتاريخي متصل الحلقات، متحد الروابط والصلات فيها ، في درامية الحركة ، وسير الحوار ، وتجدد الحدث ، والبلوغ به الى الذروة ، والشرح والتفصيل لكل مواقف شخصيات المسرحية ، والتحليل الفكري والنفسي لكل ما تجيش به نفوسهم من أفكار ومشاعر متباينة ٠

ويعد ذلك احدى السمات البارزة للمسرحية التي بين أيدينا ، بل لكل أعمال عدنان مردم بك وفنه المسرحي وقد أخرج من قبل غادة أفاميا وهي دراما شعرية صدرت عام ١٩٦٧ والعباسة وهي مسرحية شعرية صدرت عام ١٩٦٨ والملكة زنوبيا وهي كذلك مسرحية شعرية صدرت عام ١٩٦٩ ، ثم الحلاج وهي مسرحية شعرية صدرت ١٩٧١ وجاءت مسرحيته رابعة العدوية التي صدرت ١٩٧٢ ، تؤكد كل القيم الفنية التي يسير عليها عدنان مردم في فنه المسرحي ، وفي التزامه فيها بالاطار التاريخي أو الفكري ، وبشرح فكرة قومية أو انسانية ٠

ـ ٢ ـ

ومسرحية (رابعة العدوية) من أربعة فصول ، وفي كل فصل تتعدد المناظر (اثنان) ، ويحتوي كل منظر على مشهدين ، فكأنها على الحقيقة تحتوي على ستة عشر مشهدا٠ وذلك مع التقيد بوحدة الموضوع ووحدة المكان وبوحدة الزمان أيضا على قدر الامكان ٠

الفصل الاول بمشاهده الاربعة يتحدث عن رابعة وأترابها في حانة ابن عمار ، وما دار بينها وبينهن من حوار وعن ضجيج سخط زهاد البصرة من ابن عمار وحانته ، ومن رابعة هذه الفتاة المغنية ، وعن أثر ذلك في نفوس فتيات حانة ابن عمار ويلتزم الشاعر في هذا الفصل بمواقف ثابتة لشخصياته ، ولرابعة من بين هذه الشخصيات على الخصوص ، فهي تؤمن بعدل السماء ، وتلقي كل ظلم على البشر ، وهي لا تسخط على أحد ، ولا تحب أن تسخط على أحد :

حقد السجين على القيود
يزيد من عبء القيود

ومأساة رابعة ليست من صنع القدر :

ما كانت المأساة لو
فكرت من صنع القدر

مأساتنا بنت الخيال
البكر ـ كانت ـ والفكر

والمرء يخلق وحده
دنياه من خير وشر

وهي تؤمن بالجهد الانسـاني ، وحرية الارادة ، وبقدرة الانسان على بناء نفسه :

الـرق ليس بمانـع
يومـا رقيقا من ظفـر

ان النبـوة في البـداوة
أشـرقت لا في الحضر

والفجر كان ابن الظـلام ،
ونـوره مـلء البصر

مع نفاذ ارادة الله القاهرة ، ومع الرضا بكل ماقسم الالـه :

ربـاه أمـرك نافـذ
فيما قسمت من المصـير

أنـا بالذي أجريـت
راضية فهون من عسـير

مع الحرص على القيم ونقاء الضمير :

العار في مـوت الضمير
وأن نعيش عـلى الـكذب

وهي كذلك تؤمن بالحب ، وبأن الدين حب خالص :

الدين حب خالص لله ، لا تعب وكد

وشر المصائب أن نعيش حياتنا بغير حب :

شـر المصـائب أن نعيش
حياتنـا من غير حـب

تسع المحبـة كل ذنـب
جـل في شـرق وغـرب

ورابعة فلسفتها الحب وحده :

ان المحبـة كالضياء
تشـع في كـوخ وقصر

قلبي الذي وسـع الورى
بحنانه ، وجرى بعطـر

ما كان يحجـب نـوره
عن ظـالم حبـا بثـأر

اني لابـكي قاتلي
من رحمة بدموع صـدري

وفي الفصل الثاني يتحدث عدنان مردم بك عنجانب من جوانب المسرحية ، زهاد البصرة يسعون الى ابن زيـاد أحد سراة هذه المدينة ليشتري رابعة ، ليحد من فتنة غنائها المؤثر على الشباب في البصرة ، وحوار ابن زياد مع أصدقائه في ذلك الامر ، ثم ارسال ابن زياد لورد ليساوم ابن عمار في شرائها ، ثم حزن أتراب رابعة في حانة ابن عمار من موقفه في شأنها وموافقته على البيع ومناقشتهم له ، وهموم رابعةفي ذلك الموقف الحزين وضراعتها الى الله تناجيـه ، ثم خروج رابعة مع رسول ابن زياد بين الالم والحزن العميق ٠

ورابعة في هذا الفصل كعهدنا بها ، نموذج ثابت من الايمان والحب والابتهال والضراعة :

ما كانت الشـكوى تخفف
من شـجون أو عنـاء

صمت الحزين أجل في
البلوى وأبلغ من بـكاء

(عمار) ما كـان الغنى
سببا الى كسب الثنـاء

قـدرت في الاخـذ
السعادة ، والسعادة فيالعطاء

الحب ديدنها وغايتها ووجهتها في الحياة :

ان السعادة ان تحب وليس في كسب الثواب

السعادة في حب الاله وفي مد يد المروءة والوفاء :

ان السعادة أن تمـد
يـد المروءة والوفـاء

ونذوب في حـب الاله
جوى على كـر البقـاء

فالله خـير خالص
بالحق يسـطع والضياء

ان اليقين بالله هو مصدر السعادة :

أختـاه لو صـح اليقين
لما جزعنـا في مصـاب

يحلو العـذاب مع الهوى
وتهون أسباب العذاب

ان السـعادة أن نحـب
وليس في كسـب الثواب

وفي الفصل الثالث يرسم الشاعر في حواره الشعري المسرحي مجلس زياد مع أصدقائه ومع الزهاد من أعلام البصرة ، وامتلاء بيته بالنساء اللواتي قدمن لرؤية رابعة، وحياة رابعة في دار ابن زياد ... ورابعة في هذا الفصل بمشاهده ، محبة ولهى ، متفانية في الابتهال الى الله ، تتحدث الى لداتها فتقول :

ماذا يضير الشمس ان
خفيت على من لا يرى
وبنورها تجري الحياة
على الاباطح والربى
الشمس تغدق بالحياة
ولا تقصر عن ندى
والقلب ان سمت المشاعر
كان أشبه بالضحى

وهي كذلك مستغرقة في الحب :

حب بقلبي جل عن حقد مشين أو معاب

فالحياة أبهى مع المحبة :

أختاه ما أبهى الحياة مع المحبة والوداد

وهي مستغرقة في الابتهال الى الله عز وجل :

لكن حبك ذاد في الظلماء عن جفنيَ غمضا

وتهتف من أعماق قلبها بالله :

مالي أراك جفوتني وجهنم الحمراء عتبك
الناس تطمع بالجنان وغايتي يا رب قربك
قل لي حبيبي كيف تحرق باللظى قلبا يحبك

وفي الفصل الرابع زهاد البصرة : رباح وشفيق البلخي يعتذرون عن ظنونهم في رابعة ، وتذهب رابعة الى حانة ابن عمار تعود صديقة شبابها عزة ، وتحضرها وهي تسلم الروح الى بارئها ... ورابعة في هذا الفصل كما كانت ولهانة حرى ، حياتها الحب ، ونقاء الضمير :

مرض الضمير هو العذاب المستجد على الدهور

• • •

أختاه في الحب السعادة والهداية واليقين
والله كان محبة وهدى فماذا تحذرين

• • •

أختاه في الحب الحياة وفي الشقاق جهنم
أنا من يلذ له الهوى في حبه ويفيض بشرا
مولاي ليس مع الهوى ألم ، فكيف أضيق صدرا

وبهذه الوحدة الفنية في العمل المسرحي الشعري ، يصوغ الشاعر عدنان مردم بك مواقف مسرحيته وفصولها ومشاهدها في عمودية محافظة ، وفن أصيل رفيع وفي قدرة على الحوار والحركة ، وتصور كامل للموقف وأبعاده ، مما يجعلنا حقا مشدودين الى تسلسل الحوار وفنية الحركة الدرامية الاخاذة ، في مسرحية (رابعة) .

وليس من شك في أن هذا كله من الخصائص الاصيلة لفن عدنان مردم بك المسرحي ، وانه يلتزم بمواقف ثابتة صلدة لابطال مسرحياته ، ويقود حركة الحوار والتسلسل الدرامي معهم في لباقة ودقة وذكاء وعمق .

وبقي بعد ذلك أن القطعة المسرحية عند الشاعر عدنان لا تتخذ طابعها الغناء ، كما نجد عند شوقي وعزيز أباظة مثلا ، بل أنها تبتعد عن فكرة مسرح الغناء الى المسرح الدرامي الذي تمثله العقدة والازمة والحل والصراع والحوار القصير الحركي .

وبذلك يضع عدنان مردم بك أصولا ثابتة في فن المسرحية الشعرية لا يتجاوزها ، مما نحمده له ونوافقه فيه ونقره عليه .

بقي بعد ذلك بعض الاخطاء التي ترجع أكثر ما ترجع الى الطبع لا الى النص مما ليس للمؤلف فيه حيلة في أكثر الاحيان ، وليست على أية حال بذات بال .

وأعود فأهنىء الشاعر الكبير عدنان مردم بك بهذا الابداع الفني المرموق ، وهذا الانتاج المسرحي الموصول ، وليس ذلك كله ببعيد ، ولا بقريب منه .. ففي موهبته وأصالته ووراثاته الشعرية العميقة ما يمكن أن يفسر لنا سر ابداعه وروعته ، والشيء من معدنه ليس بمستغرب على ما يقال .

وتحية للشاعر من الاعماق .

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي



الامارات العربية المتحدة

ابراهيم حريب

ـ نظرة عامة ـ

الخليج العربي، ذلك الذي ظل مجهولا حينا من الدهر طويلا ، انه الحارس الامين الذي وقف في الباب الشرقي للوطن العربي شامخا أمام التحديات ، صامدا بوجه الغزوات المتعاقبة ، كان لموقعه الجغرافي ولثرواته الدفينة أثر عميق في تطلعات الغزاة ، وأثر عميق في شموخه وصموده ٠

الامارات السبعة ، التي تتالف منها الدولة الجديدة ، وتربض على ساحل الخليج ، تعددت أسماؤها ، فهي : ساحل الهدنة مرة ، والساحل المتهادن مرة أخرى ، والساحل الاخضر عند ناس ، وساحل المشيخات عند آخرين ، والامارات المتصالحة على لسان قوم ، وساحل عمان على لسان قوم ، وأخيرا تلاشت تلك الاسماء وأمحت من أذهان الناس ، فهي اليوم : دولة الامارات العربية المتحدة ٠

هذه الامارات : أبو ظبي ، دبي ، الشارقة ، عجمان ، أم القيوين ، الفجيرة ورأس الخيمة ٠ هي التي ظلت مجهولة ، فقد أسدل الاستعمار حولها أستارا كثيفة لا تنفذ منها العيون والعقول الى هذا الجزء الحبيب من الوطن العربي ، ساعد على ذلك : الحياة القبلية بكل أثقالها وتناقضاتها وتفاعلاتها ، وأساليب الحكم المنبثقة عن تلك الحياة ، ثم الجهل والفقر اللذين رانا على حياة هؤلاء البداة الذين يتألف منهم سكانها ٠

ولكن ما أن تفجر البترول ، واستخرجت الثروات الدفينة في باطن الارض ومن قاع الخليج ، حتى تبدل كل شيء ٠٠ تطلع الناس الى الواقع المرير ، والى حياة من حولهم من اخوتهم العرب ، فاندفعوا بلهف وعزم يعبون من معين الحياة الجديدة ، ويبنون ويتفاعلون مع كل القضايا العربية التي برزت ظواهر سياسية واجتماعية واقتصادية غير طبيعية ٠ ومثلما خرج المارد من قمقمه الذي ظل حبيسا فيه ردحا من الزمن ، تأسره عوامل ذاتية وأخرى خارجية خرج هذا الانسان يحطم القيود ويكسر الاصفاد ويتمرد على الواقع الحزين ، ويضع نفسه في الموضع الذي أراده لها من الحياة ومن قضايا أمته العربية ٠

لكن هذا ليس كل شيء ٠٠ ان الطريق شائك وشاق وطويل ٠٠ الرواسب العميقة التي خلفها الاستعمار البريطاني ٠٠ العزلة الرهيبة التي كان يعيش فيها هذا الانسان ٠٠ التقاليد ٠٠ التخلف الاجتماعي والسياسي ٠٠ الثورة على كل هذا، البناء، وليس الترميم ٠٠ مواجهة الحقيقة وليس التهرب منها، تلمس الواقع وليس مجانبته، التناقضات الحادة في نفس الانسان وعقله، ٠٠ هذا كله، وغيره كثير، هو الذي فرشت به الطريق الطويل ٠٠ الطويل ٠٠ لكن الامل العظيم هو الذي قاد المسيرة بخطى وئيدة واثقة ٠

ـ ٢ ـ

بين تلك الامارات التي تتألف منها الدولة العربية الفتية، حدود عجيبة، يتداخل بعضها مع بعض، وليس بينها فواصل طبيعية كالوهاد أو المرتفعات أو الانهر، أراضي بعضها متناثر، تفصل بينها أراضي امارات أخرى، فابن الشارقة الذي يريد «خورفكان» مثلا، وهما في امارات واحدة، عليه أن يمر عبر ثلاث امارات، هي أبو ظبي والفجيرة ورأس الخيمة، وحدود مسقط، وامارة عجمان مثل آخر، فهي موزعة على أقسام ثلاثة متباعدة ٠

هذا الوضع، ليس طبيعيا بعد قيام الدولة الواحدة التي لها دستور واحد وعلم واحد وكيان دولي واحد في المجالين السياسي والدبلوماسي ٠ والعمل هادف وجاد لتوحيد القوانين التي تنظم حياة الناس على أسس مدنية وحضارية ٠

العمل القومي الهادف يحتم ازالة كل مظاهر التجزئة والتفرقة، انها تضفي طابعا خاصا على النفوس، وقد تنمي الشعور بواقع التجزئية والاحساس بها ٠٠ ومن يدري ؟ ٠٠

ان المجتمع واحد في كل الخليج العربي، وهو متشابه الى حد التوافق والتطابق، في عاداته وتقاليده، في نفسيته وشعوره، في لغته ولهجاتها، في دينه وقوميته، في تاريخه ونظامه القبلي الذي كان سائدا، كل ذلك، يحتم ازالة تلك الظواهر ٠

ـ ٣ ـ

تاريخ القواسم، هو تاريخ ساحل عمان كله، ظهروا قوة ذات شأن في عام ١٨٤٧، عندما بدأت فارس تضعف، سيطروا على الساحل كله وعلى شواطىء ايران، وامتد نفوذهم الى سواحل الهند، كانوا يملكون أسطولا ضخما، تخشى سطوته كل السفن حتى الانكليزية ٠

وكان الغرب ينظر الى هذه البلاد نظرة متميزة، فيها نسيج من الاسطورة، وفيها نهم وخوف، يقول عنها السرجون مالكوم « ربنا يبعدنا ويحفظنا منهم، ان مهنتهم القرصنة ونشوتهم القتل، انهم معذورون، لانهم من نسل الغيلان والوحوش ويعملون طبقا لطبيعتهم » ٠

الخوف من سطوة القواسم هو الذي أملى على السرجون مقولته هذه، وهو أملى على الرحالة الايطالي ـ ماركوبولو ـ رأيه فيهم ٠٠ فقد وصف الحلقة المحكمة من المراكب التي تسد مداخل الخليج، بحيث لم يكن من الممكن أن تمر سفينة دون أن تهاجم ! ٠٠٠ ولقد حاول القرصان العالمي الشهير ـ الكابتن كيد ـ أن يجرب حظه، فغامر واقترب من ساحل الخليج فصدته القوة العربية، فعاد أدراجه الى المياه الاسبانية ٠ وقبلهما بزمن بعيد قال الروماني ـ بيبلوس ـ : ان السفر الى جنوب الجزيرة العربية محفوف بالاخطار، ويتطلب وجود فرقة من رماة الاسهم، لان البحار مكتظة بالقراصنة ٠

من ذلك سماه رجال من الغرب : «ساحل القراصنة» ٠

وكان الخليج مركزا لتجارة التوابل والحرير وصادرات الهند واللؤلؤ، وكان الاسطول التجاري يعززه أسطول حربي، يجوب البحار، ويحرس الساحل، وكان لعاب القراصنة الغربيين يسيل للثروة التجارية، دفعهم الى محاولات غزوه، يطاردون العرب، والعرب يطاردونهم وكانت قوة القواسم لهم بالمرصاد، فقد بلغت قوتهم ذروتها في عام ١٨٠٩، هددت حكومة الهند ومنعت سفنها من أن تمر في مياه الخليج العربي، مما دفع حكومة الهند في عام ١٨١٩ الى الاتفاق مع بريطانيا، فكونتا أسطولا ضخما، هاجم القواسم في معاقلهم، واستهدفوا رأس الخيمة، فاستبسل القواسم دفاعا عن وطنهم أمام مدافع الاسطول الضخم وقوته المتحركة، وفي ١٨١٩/١٢/٩ نزلت القوة البريطانية في رأس الخيمة فلم تجد غير الشيوخ والنساء والاطفال، فالرجال قد استشهدوا بعد معارك ضارية، وبعد أن أصيبت سفينة القيادة العربية، والتجأت بقية الاسطول الى جزر ـ فرور ـ قرب الشاطىء الفارسي، وفرضت برطانيا معاهدات ١٨٢٠ على جميع أمراء وشيوخ الساحل، وقضت على نفوذ القواسم، واستعمرتها ٠

وبعد مائة وخمسين عاما جلت بريطانيا عن الخليج ،وألغيت المعاهدات الجائرة ، بعد نضال عنيف وكفاح مرير ، استمر طوال ذلك الزمن ·

ـ ٤ ـ

ولا بد لنا من الالمام بالامارات التي تتكون منها الدولة الفتية ، ومن نظرة سريعة ، الى بعض جوانبها ·

فأبو ظبي ، شبه جزيرة اسم الامارة واسم عاصمتها ، وعاصمة دولة الامارات المتحدة أيضا ، وقد سميت بهذا الاسم ـ كما قيل ـ لانها كانت كثيرة الظباء ، وقيل أن صيادا اصطاد ظبيا فشواه وأكل من لحمه ، وعطش ولم يجد ماء ، فمات بجوار الظبي ، فسميت تلك البقعة بأبي ظبي ·· وهي تقع في الطرف الغربي لساحل عمان ، وأراضيها تمتد من الربع الخالي ، وهي صحراوية ، وفيها بعض الحقول وبعض الاراضي التي تنبت الاعشاب البرية الصالحة لرعي الماشية ، ويتبع الامارة أكثر من مأة وعشرين جزيرة متناثرة في ساحلها ، تفصل بينها خلجان صغيرة ضحلة ، يسمونها ـ أخوارا ، خورا ـ · سكانها من بني ـ اياس ، القبيلة العربية العريقة ، حرف اسمها فأصبح ـ بني ياس ـ ويعيشون في المدن التي أنشأت حديثا وفي القرى المتناثرة في قلبها وعلى ساحلها ، وكان صيد اللؤلؤ والتجارة مصدر عيشهم ، لكن اللؤلؤ بارت تجارته بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني ورخص أسعاره ، والتجارة ما زالت قائمة ، وظهر فيها البترول الذي رفع دخل الفرد والدولة ، وبدل كثيرا من طراز حياة الناس وعيشهم ·

أما دبي ،فتقع بين أبي ظبي والشارقة ،وهي قسمان: ـ دبي ـ و ـ ديرة ـ يفصل بينهما خور واسع نسبيا ، وقد سماها البعض ـ فينيسيا الشرق ـ ، وينتقل الناس بينهما بالقوارب · وسكانها من قبيلة ـ بوفلاسة ـ وهم فرع من بني اياس · نزحوا اليها من أبي ظبي حوالي عام ١٨٣٣ وأقاموا فيها وتنافسوا مع أبناء عمهم ، مما أدى الى حروب بينهما كثيرة ، وهي مركز تجاري هام ·

ولنا وقفة قصيرة عند حدث ترك آثار عميقة على الحياة في دبي ، جعلها أكثر رقيا وغنى من شقيقاتها الامارات الاخرى قبل ظهور البترول ·

الاوضاع ما كانت مستقرة فيها ، وكان المجتمع يتألف من تحالف بين فلاسة وبين بني فلاح المسيطرين على ميناء دبي ، فحكموا الامارة ، وكان حكما عشائريا تقليديا، شأنه في كل الامارات ، وقد قدموا خدمات أمنية للشعب لقاء دخل ثابت من رسوم فرضت على البضائع الواردة الى دبي ، غير أن ذلك لم يحقق استقرارا ، فقد اجتاحت دبي اضطرابات ، نتجت عن التنافس بين آل مكتوم الحكام ، وبين آل راشد الذين كانوا يحكمون ، هذا التنافس أدى أيضا الى ركود اقتصادي ، وكانت طبقة التجار بما لها من ثقل اقتصادي تقف بجانب حاكم دبي الشيخ سعيد بن مكتوم (١٩١٢ ـ ١٩٥٨) الذي كانت له تجارة ، وله دخل النفط ، ودخل امتياز لتسهيل الطيران البريطاني ، وهي دخول حرم منها بنو فلاسة ، بسبب غياب المؤسسات السياسية والتنظيم المالي والاداري ، نشطت المعارضة بعد اعلان تفاصيل امتياز التنقيب عن البترول واستثماره ، وهدد الشيخ سعيد بالتنازل عن الحكم ، واجتمع بعض الوجهاء بتاريخ ١٥/٤/١٩٢٩ برئاسة محمد بن أحمد بن دملوج ، ونصبوه حاكما ، لكن هذا لم يرض البريطانيين ، الذين أعلنوا أن الحاكم قد وصل الى الحكم بظروف مرضية، وأن التغيير يجب أن يتم برغبة الشعب ، ولعل بريطانيا تخشى من هبوب رياح جديدة تحدث تغييرات جذرية في أساليب الحكم في كل الامارات الواقعة تحت سيطرتها وفي ١٧/٤/١٩٢٩ عاد الوجهاء الى الاجتماع وقرروا اعادة الشيخ سعيد الى الحكم ·

في أواخر عام ١٩٣٤ ، وقعت محاولة لاغتيال الشيخ سعيد ، واتهم آل راشد بتدبير هذه المؤامرة ، فاشتدت معارضتهم عنفا بعد أن انضم اليهم آل بطي ، لكن هذه المعارضة لم تعط نتيجة حاسمة ، وأخيرا ، أقسم حشر بن راشد وسعيد بن بطي يمين الولاء للشيخ سعيد ، ولقاء هذا فوض في عام ١٩٣٦ سعيد بن بطي حاكما على ـ ديرة ـ الجزء الاخر من دبي ، فقام باصلاحات فورية ، مثل : كنس الشوارع ، واجبار المومسات على الزواج وحظر التجول ليلا للحد من السرقات ، فاعترض حلفاؤه من بني راشد على هذه القيود ، بخاصة بعد أن شاع منع تجارة الرقيق وتحرير العبيد جماعيا ، ومنع تجارة السلاح التي كان البريطانيون يخشونها ،لئلا تتسلح القبائل ، ويضطرب الامن بحدوث غزوات بينها ·

تفجر الصراع واشتد الخلاف بين الحليفين وبين البريطانيين ومناصريهم الذين تضرروا من هذه التدابير ومن تردي الاوضاع الاقتصادية وبوار التجارة ·

وظل الامر كالنار خلل الرماد ، حتى تفجر الوضع في آذار ١٩٣٨ بقيام مظاهرة تعارض ما نوى الشيخ سعيد اتخاذه من تدابير ، بخاصة ابعاد تاجرين للسلاح عن

دبي ، وقد أدت تلك الاضطرابات الى تدخل البريطانيين ، فهددوا السكان والحاكم الشيخ سعيد ، بحجة المحافظة على أرواح الرعية وممتلكاتها ، بالوقت الذي أعلنوا فيه عدم تحرير العبيد ، الا اذا أراد أحد عتق عبده ، فله الحرية في ذلك ٠

عندئذ ، تقدمت المعارضة بمطاليبها الى الشيخ سعيد ، وهي اعادة العبيد المعتقين الى أسيادهم ، والعفو عن المتهمين بتجارة السلاح ، وتشكيل مجلس يتعاون مع الشيخ سعيد في ادارة شؤون الامارة ، والايعقد أي اتفاق مع البريطانيين الا بمشورة المجلس ٠٠ ورفض البريطانيون ذلك كله ، واجتمع نائب الوكيل البريطاني بالمعارضين ، فلم يسفر الاجتماع عن شيء ٠

اشتدت المعارضة بعد حادث مثير ٠٠

كان راشد بن سعيد يحتكر النقل بين دبي والشارقة ، لم ينافسه أحد غير ابن عمه مكتوم بن راشد الذي هاجم مع ثلاثين من رجاله ، سيارة لمكتوم ، كانت في طريقها الى الشارقة ، فجرح سائقها وبعض رجاله ، ورفع هذا الامر الى الشيخ سعيد ، فاستعصى عليه حله ٠ وأدى هذا الحادث الى تفاعلات جديدة ومثيرة ، دفعت بالمعارضة الى أن تتقدم من جديد بطلبات جديدة ، هي (تحديد ميزانية للامارة ، تحدد فيها مخصصات الحاكم ، ورعاية الصحة العامة ، وحراسة الاسواق ، واعادة تنظيم الجمارك ، والغاء امتيازات الحاكم واسرته) ٠

لم يكتف المعارضون بتقديم هذه المطاليب ،وانتظار ما تسفر عنه ، بل احتلوا بعض القلاع وسلحوها ، فاضطرب الامن واختل ٠ وتدخل نائب الوكيل البريطاني لاقناع الشيخ سعيد بالموافقة على طلبات المعارضة ، وكاد يقتنع ، لولا وعد حاكمي رأس الخيمة والشارقة،بمساعدة الشيخ سعيد الذي أصر على موقفه السابق ، لكن البريطانيين هددوهما بعدم التدخل في شؤون دبي الداخلية وأصرت المعارضة على موقفها ، فضعف موقف الشيخ سعيد بعد أن توقفت الحركة التجارية وشلت ، وبعد أن تدخل أمير أبي ظبي وشيخ بني كتاب في الامر للصلح بين الشيخ ومعارضيه ٠ فتمت المفاوضات بينهما ، وأسفرت عن اتفاق عقد بتاريخ ٢٠ ـ١٠ ـ ١٩٣٨ على ما يلي :

١ ـ تأسيس مجلس برئاسة الشيخ سعيد ، يضم خمسة عشر عضوا من وجهاء دبي ٠

٢ ـ كل قرار يتعلق بشؤون دبي ، يجب أن يخرج من المجلس ٠

٣ ـ دخل الامارة وانفاقه ، يجب أن يتما بموافقة المجلس ٠

٤ ـ ثمن دخل الامارة يذهب الى الحاكم ،والسبعة أثمان الباقية تصرف على المدينة ٠

غير أن البريطانيين تحفظوا على بعض بنود هذا الاتفاق ، وأعلنوا أنهم يستمرون بالتعامل مع الشيخ سعيد بن مكتوم في كل الاتفاقات التي تتصل بالعلاقات بين بريطانيا ودبي ٠

ليس من شك في أن بعض دوافع هذا الحدث صراعات وتنافس على الحكم بين أبناء عم يحكمون وآخرين كانوا حكاما ، ومبعث هذا التنافس ، طبيعة النظام القبلي في كل مكان ، ويدهي أن تأخذ ظواهره شؤونا سياسية واجتماعية واقتصادية ، قد تمسح بيد الرفق على المجتمع كله ، وتمنحه رفدا جديدا ، يدفع به الى الرقي والتقدم ، فالاصلاحات التي نادى بها فريق أعطت ثمرتها عندما تحققت ، ولعل دبي ، بسبب نتائج هذا الحدث ، تمتعت بشيء من الغنى والرقي ميزها على الامارات الاخرى ، ويكفي ـ في البدء ـ أن فئة من الناس تلمست الحياة الاجتماعية وأحست بسوئها ، وشعرت بضرورة تبديلها ، لكي يأخذ الاصلاح سبيله المرجو ٠

وليس من شك أيضا أن هذه الحركة قد أثرت وتأثرت بالحدثين اللذين وقعا في الكويت والبحرين الى حدود بعيدة وعميقة ، فتمت تحولات جذرية في أسلوب الحكم وفي وضع ميزانية الامارة وتحديد سبل الانفاق ، وفي الرقابة على السلطة التنفيذية ، وفي الحياة الاجتماعية أيضا ، فقد تنبهت الاذهان الى ضرورة تبديل الاوضاع العامة ، فتحرير العبيد مثلا ، لم يأت الاتفاق بين الفئتين المتنازعتين على ذكره لحرص أسيادهم على بقاء الرق ، الا أنه أعطى ثمرته فيما بعد ، ففي البدء كان الرق حالة اجتماعية مرضية مألوفة ، ثم أخذ العتق الفردي سبيله ، اذ تغيرت النظرة السائدة الى نظرة جديدة للانسان وحقه في الحرية والعمل ، ليشعر بانسانيته ويؤكدها ، وليكون عاملا خلاقا في المجتمع ،ولتزول الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أدت الى الرق واستعباد الناس ٠

الشارقة ٠٠ يعتبرها الغرب بلد الاساطير ، وجاء هذا الاعتبار من قوة القواسم وسيطرتهم على مداخل الخليج ، وهي تقع بين امارتي دبي وأم القوين ، وتتصل بساحل عمان ، وتشترك بحدودها مع كل الامارات ، رقعتها واسعة ومتناثرة ، تفصل بعضها عن بعض أراضي امارات أخرى ، وميناؤها منذ القديم صالح لرسو السفن ، وكانت مركزا للسيطرة البريطانية ٠

سكانها من القواسم ، الذين كان لهم تاريخ حافل امتدت آثاره على ساحل عمان كله ، كما أسفلنا القول ، ويشتهر أهلها بالصناعات الدقيقة الذهبية والفضية ٠

رأس الخيمة ـ٠ معقل القواسم ، وتاريخها تاريخهم بكل ما فيه ، وعندها كانت المعركة الفاصلة بينهم وبين البريطانيين في أواخر عام ١٨١٩ ٠

سميت بهذا الاسم ، لان أحد شيوخ القواسم ، نصب خيمته في تل عال يشرف على مياه الخليج ، يراقب السفن المارة بها ، وبأنوار هذه الخيمة تهتدي ليلا ، وكان اسمها القديم ـ جفار ـ فبدله الناس برأس الخيمة ٠

سكانها من القواسم ، يتركز الايرانيون وبعض الهنود في بعض أرجائها ، كرأس الخيمة العاصمة والجريزة والرمس ٠

أم القيوين ـ ٠ وسكانها أيضا من القواسم ، أرضها رملية ، تتناثر فيها مدافع قديمة ، رهنها منذ مائة وسبعين سنة تقريبا ، سالم بن تويني آل سعيد نجل حاكم مسقط عند حاكم أم القيوين الشيخ أحمد بن عبد الله المعلا ، نظير أربعة آلاف ريال فرنسي ، وبعد وفاة سالم ، وحلول عزان بن قيس مكانه ، طالب الشيخ أحمد برد هذه المدافع اليه ، فامتنع الا بعد دفع قيمة الرهن ، وتبادلا رسالتين طريفتين، فيهما تهديد ، وفيهما تحريف باسميهما ، فغزاهم سلطان مسقط ، وتصدى له أقارب الشيخ أحمد عند الحدود ، وصدوه ، فبقيت المدافع ٠

الفجيرة ـ تقع على خليج عمان أيضا ، وعلى امتداد سهل الباطنة بين بلدتي كلبا وخور فكان ، وفي وسطهما قلعة أثرية بناها القواسم أثناء حربهم ضد الغزاة الانكليز، وما زالت فيها آثار انفجارات القنابل ٠

أراضيها صحراوية ، تتخللها واحات بين الجبال ، وأراضي خصبة تقع على ساحلها ، تكثر فيها مزارع النخيل وبرغم هذا ، فان الفقر شديد ، والجهل سائد ، وقد امتدت اليها يد شقيقاتها بالعون لنشلها من هذا الواقع المؤلم ٠

سبق لام القيوين ، أن اتحدت فدراليا مع الشارقة ٠

عجمان ـ تقع شمال شرقي الشارقة ، وهي أصغر الامارات مساحة ، ورغم صغرها فانها مقسمة الى ثلاث مناطق متباعدة : منطقة عجمان الاساسية على الساحل ، ومنطقة المنامة ، ضمن الفجيرة ، ومنطقة مصفوف بين الشارقة وفي الفجيرة أيضا ٠ تمتاز بطيب هوائها ونقائه ، وبكثرة مياهها العذبة، يؤمها الناس من كل الامارات العربية، يستمتعون بهوائها وطبيعتها ، وقد اتخذوا من قرى (شعم وظليلة وخت) مرابع لهم في الشتاء والربيع ٠

ـ ٥ ـ

سكان هذه الامارات عرب ، تمتد أصولهم الى قبائل عربية عريقة، ولقد رأينا من تاريخها لمحات عابرة، لا يتسع المقام لبحثه تفصيلا ، وما زالوا يتمسكون بعاداتهم تقاليدهم الموروثة ، برغم أن رياح المدنية والحضارة قد هبت على هذه المنطقة ، وبدلت كثيرا من شؤون حياتهم وشجونها ٠

الفوارق الاجتماعية والاقتصادية ما زالت ظاهرة بارزة للعيان ، منهم ـ كما قلنا قبلا ـ يعيش حياة البدواة، يتنقل في صحرائها ، يرعى ماشيته ، فمنها غذاؤه ومنها كساؤه ، يتمتع بشظف والعيش ويتذوق مرارة الحياة ، لم تنتشله يد من وهدة عاش فيها ، وقسم يعيش في مدن ، يتمتع بالعيش الرغيد ويحظى بالحياة الهنيئة ، نعيم وثروة هنا ، وجهل وفقر هناك ، وما زال أمام الرواد والمفكرين المصلحين من أبناء هذه الامارات ، طريق طويل وشاق لازالة الفوارق ، وتبديل حياة الناس بأحسن منها ، وأنهم لفاعلون ٠

يتخلل سكان الامارات ، هنود وايرانيون ، يسيطرون على بعض المرافق والصناعات ، التي يأنف العربي ـ كعهده القديم ـ من العمل بها ، ويتمركز أولئك الذين هاجروا اليها في كثير من أرجاء الامارات ٠

وليس ثمة من احصاء دقيق للسكان ، سواء في الريف أو البادية ، وان كانت يد التنظيم الاداري بدأت في بعض الامارات ، لكنها لم تمتد الى بعضها الآخر ، ولعل الامر يسير في طريقه القومي الصحيح ، للحد من الهجرة ولوقف التيار المتدفق ، فمنطقة الخليج العربي محط أطماع الآخرين ، لغزوها وابتزاز ثرواتها المستخرجة والتي ما زالت دفينة في باطن الارض ٠

ويحاول الغرباء من غير العرب ، صبغ المجتمع هناك بطابع مميز ، يحس فيه الانسان بمزيج عجيب من عادات وتقاليد ، ومن لغاة غريبة ، قد تؤثر بعمق على لهجاته ، ثم في لغته وقوميته وتطلعاته ٠

لكن الامل العظيم بوعي القادة والمفكرين القوميين من أبناء الخليج ، هو الذي يملأ النفوس ، بصد تلك المحاولات المتعاقبة التي تتستر بأستار صفيقة من الخداع والتمويه ٠

على هامش عدد اللغة الممتاز لمجلة المعرفة

محمد الكسار

****

قصرت حديثي في المقالة الاولى من هذه السلسلة ،على مقال الاستاذ صفوان قدسي لانه اشتمل على تلخيص واف للخطوط العريضة للمحاولة اللغوية ، موضوع التحليل والمناقشة مفتتحا بذلك باب الحوار الذي توقعته «المعرفة» ٠ وقد اتسع صدر زميلتها « الثقافة » لنشره في عدد كانون الثاني ١٩٧٧ ٠ وآمل أن لا تضيق ذرعا بنشر هذا المقال وما قد يتبعه من مقالات يقتضيها المقام لايفاء الموضوع الخطير حقه كاملا من البحث والتمحيص والمناقشة ، كما آمل أن تفسح في المجال ـ وهي فاعلة ولا شك ـ لنشر ما قد يردها من ردود على أقوالي أو أقوال السادة الادباء الذين أسهموا في محاولة « المعرفة » ليأتي الحوار بالثمرة المرجوة منه ، فيلقى المزيد من الاضواء الكاشفة على ما غم على الباحثين من حقيقة الازمة وايضاح جوانبها المختلفة ليصار الى حل عقدها الكثيرة عقدة عقدة ، مع مراعاة قاعدة « تقديم الاهم على المهم » ، الامر الذي أغفلته ـ المعرفة ـ أو تغافلت عنه لاسباب يعود اليها وحدها أمر تقديرها ٠

****

ان الاستاذ القدسي الذي كانت له الباع الطولى في التخطيط لمحاولة « المعرفة » وتوجيه البحوث التي اشتملت عليها وفي تبويبها ، قسم المشكلة في مقاله الافتتاحي الى وحدات لتستقل كل وحدة منها بمعالجة بعد من أبعادها ، وهو يعتقد ولا شك ، أن البحوث التي وقع عليها الاختيار كافية ـ ولو على وجه التقريب ـ ، لرسم خارطة تفصيلية للمشهد اللغوي العربي المعاصر ٠

فاذا أخذنا الوحدة الاولى التي توجت بشعار :

« مقدمات في التجربة اللغوية »

وجدناها تعالج الموضوعات التالية :

١ ـ نحو فلسفة اللغة العربية : للاستاذ يوسف اليوسف ٠

٢ ـ الاسلوب وجدلية اللغة العربية : للاستاذ فايز مقدسي ٠

٣ ـ العلاقة الجدلية بين اللغة والشعر : د ٠ أحمد سليمان الاحمد ٠

ان عناوين هذه الوحدة التي أريد لها أن تحتل مكان الصدارة توحي بأن طابع البحث منها فلسفي أكثر منه لغوي أو ان الجانب اللغوي منه لا يمس صميم المشكلة ولا يصلح أن يكون مدخلا لمعالجة الازمة ولا مقدمة لمعالجتها ٠ وما أن وقع نظري على هذه العناوين الثلاثة حتى قفزت الى ذهني تلك الحكمة الشعبية الفطرية التي تقول :

« قبل أن تحور سقف البيت ، اشتر لارضه حصيرة »٠

ثم رأيتني أردد بصورة عفوية مع علماء الاجتماع قولهم :

« غريزة حفظ البقاء تحتم على الانسان أن يحيا أولا ثم يتفلسف » . أي أن عليه قبل أن يجري بكل قواه وراء سراب الفلسفة الذي لا يسمن ولا يغني من جوع أو عطش أو يسعى جهده للحصول على العناصر الغذائية الاساسية والضرورية للابقاء على حياته وهي أثمن ما يملكه . ولعل هذا الكلام يلتقي « ولو بمفهومه الحرفي - مع قول السيد المسيح :

ترى ماذا يربح الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟!

وفي ضوء هذا التفكير الواقعي والسديد لنتساءل :

هل بحوث هذه الوحدة التي نحن بصدد مناقشتها وفرت للغة العربية المعاصرة أي عنصر أساسي يقيم أودها ويضمن لها بقاءها واستمرارها حية نشطة ؟ أم هل هذه البحوث -على جلال قدرها من الناحيتين الادبية والفلسفية - أعطت المفتاح السحري لحل الازمة أو أسهمت على الاقل في صنعه ؟ وبالتالي لنا أن نتساءل أيضا :

هل هذه البحوث تصلح أن تكون سلاحا ماضيا وفعالا في معركة المصير الحاسمة التي ما زالت الفصحى تخوضها مع أشرس أعدائها منذ مطلع هذا القرن للاحتفاظ بجوهرها « الاعراب » لتبقى والى الابد « لغة القرآن » الذي نزل بها .

« انا أنزلناه حكما عربيا » . لا بل انه باهى باللسان العربي سائر الالسن معتمدا الاستفهام الانكاري في هذه المباهاة « أعربي وأعجمي ؟ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

وكضمانة من رب العالمين لا يعتورها الشك لحفظ اللسان العربي بكل مقوماته نزلت الاية الكريمة :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ما أظن أن الباحثين الثلاثة أنفسهم يجيبون بالايجاب على هذه التساؤلات ، كما لا أظن أن القراء العديدين أو القليلين من ذوي الاختصاص الذين يفترض أنهم قرأوا هذه المقالات قراءة فاحصة ، خالية من الغرض ، ومنزهة عن الهوى قد وجدوا فيها ضالتهم المنشودة .

ان المجال لا يتسع في هذه العجالة حتى لاعطاء لمحة سريعة عن الخطوط العريضة لكل بحث من بحوث هذه الوحدة على حدة . ولهذا أراني مضطرا لاختيار واحد منها يكون أقرب شيء للروح العامة التي تسودها وتوحد بينها . وقد وقع اختياري على مقالة الاستاذ يوسف اليوسف :

« نحو فلسفة اللغة العربية »

مهد صاحب المقالة لبحثه الممتع والطريف بمقارنة سريعة بين ما بلغته الدراسات اللغوية المعاصرة في العالم المتقدم ، خاصا بالذكر « فرانسا وأمريكا » وبين ما بلغته الدراسات عند العرب المعاصرين فيما يتعلق بلغتهم وتطويرها مؤكدا أن الاولى تعيش اليوم عصرها الذهبي ، بينما لاتزال الثانية - حسب رأيه - تعاني ألم الولادة . وهو - في اعتقادي - لا يريد أن ينقص من قدر أبناء جلدته وانما غاية مراده أن يثير النخوة فيهم ، ويستحث هممهم بل همم أولى العزم والبصيرة منهم من الغيورين على لغة الضاد المعنيين بأمرها ، للعمل الجاد الدؤوب على احياء ما كاد يندثر أو يغفل شأنه من البحوث اللغوية القيمة التي قام بها من أطلق عليهم - عرب القرون الوسطى - ومن وصفهم بأنهم أهم شعب اشتغل في التحليل اللغوي عبر القرون القديمة والوسيطة . وهذه الشهادة نفسها وردت على لسان أكثر من باحث لغوي غربي منصف .

لقد اكتفى الكاتب - في معرض اشادته بما بلغته علوم اللغة عند العرب الاقدمين - بالتنويه بجهود ابن جني - القرن الرابع الهجري - وعبد القادر الجرجاني - القرن الخامس - . ولو كان اطلاعه على تاريخ النحو

وعلوم العربية الاخرى أشمل وأعمق ـ ولا تثريب عليه في هذا القصور ، لانه ليس من ذوي الاختصاص في هذا المجال أصلا ـ لننوه ـ ولو باختصار شديد ـ بالجهود اللغوية الجبارة والمعجزة التي بذلها الرواد العظام الاوائل الذين بنوا باحكام عجيب ذلك الصرح اللغوي الشامخ قبل أن يبدأ علماء الغرب بحوثهم بأكثر من عشرة قرون ٠

ان تاريخ البحث اللغوي عند العرب يؤلف سلسلة طويلة متصلة الحلقات ومتكاملة ، بدءا من واضع حجر الاساس لهذا البحث ، أبي الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٧٠ هـ ٠ الذي أرسى المبادىء الاولى للنحو « الجد الاكبر لعلوم العربية كلها » ومرورا بشوامخ القمم الذين أكملوا البناء ورسخوا قواعده وفرعوا فروعه من أمثال :

١ : عبدالله بن أبي اسحق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ هـ الذي قيل عنه : انه أول من علل النحو « أي أدخل البحوث الفلسفية والمنطقية فيه » ٠

٢ : عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩ هـ ٠ وقد نسب اليه أنه وضع كتابين كبيرين في النحو امتدحهما الفراهيدي بقوله :

بطل النحو جميعا كله
غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع
فهما للناس شمس وقمر

٣ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي نابغة النوابغ اللغويين من عرب وغير عرب واضع أول قاموس في التاريخ في سفره الجليل المسمى « العين » ٠ والمتوفى سنة ١٧٥ هـ الى جانب ابتداعه علم العروض على غير مثال سابق فضلا عن استيعابه للنحو الذي استنبط من علله ما لم يستنبطه أحد ولم يسبق لمثله سابق ٠

٤ ـ سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٠ الذي أرتبط اسمه باسم النحو على كر الاجيال ، والذي وضع « الكتاب » الذي وصف بأنه « قرآن النحو » وما زال منذ نيف واثني عشر قرنا من الزمن المصدر الاساسي والاوحد للبحوث اللغوية عند العرب ٠

٥ ـ الجرمي المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ٠ الذي كانت له اليد الطولى في تعريف الناس بكتاب سيبويه واشاعته بينهم ٠

٦ : المازني الذي شهد المبرد بخلافته لسيبويه في امامة النحو اذ قال عنه : « لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان المازني ٠ وقد توفي سنة ٢٤٩ هـ ٠

٧ : المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ٠ الذي انتهت اليه زعامة المدرسة البصرية وبه ختم كبار أئمتها وقد امتدحه ابن جني نفسه بقوله عنه : يعد المبرد جيلا في العلم واليه أفضت مقالات أصحابنا البصريين فهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والقياس عليها ٠

٨ : الزجاجي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ٠ وهذا أول من توسع في بحث العلل النحوية في كتابه « الايضاح في علل النحو » واقتدى به في هذا المجال ابن جني في كتابه « الخصائص » ٠

وهناك غير هؤلاء الائمة الاعلام كثيرون ـ لا يتسع المجال لسرد أسمائهم ـ ممن أسهموا في تأسيس علوم اللغة العربية في جميع فروعها أو في اكمالها أو تطويرها على الاقل ٠

ولو تسنى للاستاذ اليوسف أن يطلع اطلاعا كافيا على تاريخ البحث اللغوي عند العرب لسهل عليه أن يقع على مصدر العلة المزمنة التي يعاني منها الناطقون بالضاد منذ أجيال وأجيال ، ألا وهي : « الاعراب وعلاماته » وقبل مداواة هذه العلة وايجاد العلاج الناجع لها تبقى جميع البحوث الهامشية الاخرى بدون جدوى ٠

ان المتتبع للحركة اللغوية العربية المعاصرة الراصد باهتمام للمعركة الحامية التي ما زالت رحاها تدار بعنف منذ مطلع هذا القرن بين أنصار الفصحى وخصومها الظاهرين والمستترين يلاحظ بسهولة تامة أن ميدان المعركة الاساسي هو « الاعراب » وعلى نتائج هذه المعركة

يتوقف مصير هذه الفصحى ، بل أكاد أقول : ومصير القومية العربية والامة العربية وجودا أو عدما • وبناء على هذه الحقيقة التي لا يمارى فيها الا خائف أو متغافل يكون من أولى واجبات المثقف العربي الواعي أن يحدد موقفه من هذه المعركة فلا ينضم من حيث لا يدري الى معسكر الاعداء يرمي عن قوسهم ويساندهم في تحقيق أهدافهم واصابة مراميهم حتى اذا تكشفت لناظريه تلك الاهداف والمرامي على حقيقتها راح يعض أصابعه ندما ولات ساعة مندم •

فقبل الاستاذ اليوسف بقرابة نصف قرن ، وعلى وجه التحديد في عام ١٩٢٩ نشر العلامة اللغوي اللبناني الكبير جبر ضومط كتابا سماه « فلسفة اللغة العربية » دافع فيه دفاعا حارا عن فكرة الاشتقاق في العربية مؤكدا أن الاشتقاق عماد اللغة وأقوم مقوماتها وأنه هو وحده حياتها وعليه يتوقف رقيها أو انحطاطها ، تقدمها أو تأخرها •

ومقالة الاستاذ اليوسف في جوهرها ولبابها ليست الا احياء لفلسفة ضومط التي سقطت في حينها صريعة في ميدان المعركة حين أراد أن ينفذ من خلالها الى روح العربية فيستلها ويرمي بها في هوة العدم السحيقة • وبمقدار ما دافعت « فلسفة ضومط » عن فكرة الاشتقاق لتجعل جوهر العربية النفيس وعمادها الرفيع ، هاجمت تلك الفلسفة نفسها الاعراب وحركاته زاعمة أن علامات الاعراب ليست من مقومات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة •

يقول الاستاذ ضومط مفلسفا اللغة العربية :

الاعراب من أعراض اللغة العربية المعربة وأكثر ما نقول فيه : انه بمنزلة العرض العام ، لا من الصفات الذاتية ، ولا من مزاياها الخاصة • بدليل وجوده في غيرها من اللغات الغربية كاللغة اليونانية واللاتينية وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة ••

الى أن يقول :

ان الوقف هو الاصل وعلامة الاعراب عارضة ، وكان يجاء بها ابتداء لاقامة الوزن في الشعر أو للغته وما اليهما، ثم أصبحت يؤتى بها تسهيلا للفهم ، والعارض لا يعدل اليه عدولا وجوبيا الا لعلته التي أوجبته •

والاستاذ اليوسف ومن نحا نحوه يدركون معي مدى خطر مثل هذه الفلسفة على ضوابط اللسان العربي حين تلتقي مع النزعة الشعوبية الحاقدة الداعية الى نبذ الاعراب واهمال الحركات أو الحط من شأنها على الاقل •

ومن أبرز من جرى في مضمار الفيلسوف ضومط واتبع خطواته متوكئا على عصا الفلسفة لدراسة اللغة العربية دراسة حديثة غربية • الدكتور ابراهيم أنيس أحد أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة الذي انتهت به فلسفته – كما هو متوقع منها – الى محاربة حركات الاعراب بل والى انكار وجودها أصلا في اللسان العربي الجاهلي • فهو يقول في كتابه « أسرار العربية » : ما مدلول الحركات الاعرابية ؟ وما تعليلها ؟ وعلى أي أساس صنفها أصحابها أو مختلقوها ؟•• الى أن يقول : ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، وتم نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الاول الهجري أو أوائل القرن الثاني ، على يد قوم من صناع الكلام نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية ، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الاعراب حصنا منيعا امتنع على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية وشق اقتحامه الا على قوم سموا فيما بعد « النحاة » •

على أن جناية الفلسفة على اللسان العربي ليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه وانما هي ترجع الى مـ يناهز ثلاثة عشر قرنا على يد الحضرمي « ولاء » الاعجمي « نسبا » الذي سلفت الاشارة الى أنه أول من أدخل البحو الفلسفية والمنطقية الى قواعد اللغة العربية الامر الذي جعله

مستعصية على الفهم وجعل علم « النحو » الذي ينتظمها يتحول مع الزمن الى ما يشبه الاحاجي والطلاسم • وعلى هذا يمكن القول :

ان أزمة اللغة العربية التي كتب مقال الاستاذ اليوسف للاسهام في معالجتها انما هي في الواقع وليدة الفلسفة ، وان علاجه لها جاء منطبقا على قول أبي نواس :

« وداوني بالتي كانت هي الداء » !

فاذا جاز لنا أن نصدق ، أن أبا نواس المبتلى بالخمرة، كان يمكن أن يشفى من بلواه بتعاطيه المزيد منها ، جاز لنا التسليم مع الاستاذ اليوسف ومن نحا نحوه في معالجة المشكلة اللغوية ، بأن حل هذه المشكلة يتوقف على حقن بحوث اللغة العربية بمزيد من الحقن الفلسفية المعدة في مختبرات الغرب وناهيك بها من مختبرات ناجحة حقا في دس السم في الدسم •

ان تجربتي مع علوم اللغة العربية خلقت مني خصما لدودا لفلسفتها • وبدافع من هذه الخصومة وحرصا مني على خدمة اللسان العربي وضعت كتابي « المفتاح لتعريب النحو » بهدف العودة بضوابط هذه اللسان الى ينابيعها الاولى الصافية التي تفجرت في البيئة الرعوية في قلب الجزيرة العربية • تلك البيئة النقية الطاهرة التي ولد اللسان العربي في أحضانها الدافئة ونما وترعرع قويا ناشطا في كنفها وتحت وصايتها الصارمة • حتى اذا بلغ أشده وفارق مدارج صباه في أعقاب الفتح العربي الاسلامي أصابه ما يصيب عادة النهر العذب الفرات اذا ابتعد عن ينبوعه وانساح في أرض سبخة سلبته عذوبته وجردته من صفاته • فمثل هذا النهر لا سبيل الى استعادة عذوبته وصفائه الا أن يصار الى تنقيته من الشوائب والرواسب التي مازجته واعداد مجرى جديد له تتوفر فيه نفس الشروط التي كانت متوفرة لمجراه الاول في بنيته الاولى التي فارقها ولم يفارقه الحنين اليها •

لقد شغل الاستاذ اليوسف ـ٢٤ـ صفحة من عدد المعرفة الممتاز ، ركز فيها على بحث الاشتقاق وما يسمى بفقه اللغة مقتفيا أثر ابن فارس وابن جني من القدامى ، والمرحوم زكي الارسوزي من المعاصرين ، وتطابقت فكرته عن الاشتقاق واعظام قدره مع آراء جبر ضومط ولكنه لم يجاره في الحط من شأن الاعراب • وخيرا فعل من هذه الناحية •

وخلاصة ما أريد أن أقوله عن انطباعاتي عن مقالات هذه الوحدة من بحوث ـ المعرفة ـ :

ان مشكلة اللغة العربية الاساسية ، ولك أن تقول : أزمتها البالغة التعقيد ـ لم تظهر للوجود في يوم من الايام ـ لا في القديم ولا في هذا العصر بالذات ـ بسبب جهل الناطقين بها أو المتعاملين معها ـ على حد تعبير الاستاذ القدسي ـ بأسرار الاشتقاق وكيفية توالد الالفاظ ، ولا بسبب عدم احاطتهم بفلسفة تصاقب الالفاظ والمعاني ، ولا لعدم ادراكهم بصورة كافية لجدلية اللغة العربية في أساليبها البيانية على النحو الذي أوضحه الاستاذ فايز المقدسي في مقاله القيم الذي شغل ـ١٧ـ صفحة والذي بدأ فيه متأثرا بآراء أساتذته المستشرقين من أساتذة السوربون من جهة وبرمزية الصوفي الكبير ابن عربي من جهة أخرى• وبالتالي يمكننا أن نسحب فكرة « التفلسف » ـ بوجه أو بآخر ـ على مقالة الدكتور أحمد سليمان الاحمد ، الذي اكتفى بتحبير ـ٧ـ صفحات بأسلوب شعري جميل وممتع، ولكنه لا يمس المشكلة اللغوية ـ موضوع المعالجة ـ من قريب أو بعيد •

النبك **محمد الكسار**

(رسائل الاصدقاء)

الكلمة التي ألقاها الاستاذ نصرة منلا حيدر في حفلة تكريم الاستاذ بدر الدين علوش بمناسبة احالته على التقاعد:

السيد المحترم وزير العدل

السيدين المحترمين رئيس محكمة النقض ورئيس المحكمة الدستورية العليا

السادة الزملاء القضاة

انها سنة حميدة ، أن يكرم القضاة زملاء لهم أحيلوا الى المعاش ، ليوفوهم بعض ما يمليه عليهم التزام الزمالة والاعتراف بالجميل ، فينهضون بواجب الانعام ويقومون بحرمة الصنيعة • واذا كانوا محتفين اليوم ، فسيحتفى بهم في الغد ، وهكذا يأتي أناس ويذهب أناس ، ولكن آثارهم تبقى مابقي القضاء ، تنطق بأعمالهم ، وتشير الى حسن فهمهم ، وتشهد بجرأتهم ، وتدل على محمود أخلاقهم •

لقد عرفت الزميل المحترم الاستاذ بدر الدين علوش في مستهل حياتي القضائية عندما عينت قاضيا للصلح في مدينة حلب في أواخر عام ١٩٥٣ ، وكان قد قدم اليها منقولا من طرطوس • وقد تمثلت لي صفاته وأخلاقه بصورة بارزة عندما أديت دور النيابة العامة في محكمته ، وكانت محكمة بداية الجزاء التي تولى أمرها لأمد فلمست فيه تسهله في الفصل بالمنازعات ، وحكمه بين الناس بالسوية وتحقيقه النصفة ، ناهيك عن جرأته واستقامته وفهمه الصحيح لقواعد القانون ، وانزالها على المنازعات التي تعرض عليه نزولا يتفق مع غاية المشرع ورغبته • وكم كانت جميلة تلك المناظرات العلمية التي كانت تنهض بينه وبين بعض كبار الاساتذة المحامين الذين كانوا يسكنون اليه ، فكنت أشارك فيها ، وألقي بدلوي في الدلاء بقدر ما تسمح به خبرتي البسيطة ومعلوماتي الاولية ، فأغترف منه ومنهم ما أمكنني اغترافه ، وأتعلم ما استطعت تعلمه• ثم كان لي شرف العمل معه ثانية ، عندما تولى الامانة العامة لوزارة العدل في الاعوام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨ ، عضوا في ادارة التشريع ثم مديرا لها • فكنت أركن الى رأيه ، وأطمئن اليه في مطالعات الادارة التي كنت أساهم في تهيئتها مع الزملاء المحترمين ممن كان لي شرف العمل معهم •

السادة الزملاء ،،

اسمحوا لي أن أهتبل فرصة تكريم الاخوة القضاة

لاتناول بالبحث ناحية هامة كثر وقوعها في أيامنا هاته ، وان دلت على شيء فانما تدل على تنكب لجادة الشرعية والابتعاد عنها • وتتناول التشريعات التي تحجب حق التقاضي مما يخالف مبدأ سيادة القانون الذي نص عليه الدستور كما يخالف حق التقاضي الذي كفله •

اعتبر الدستور سيادة القانون مبدأ أساسيا في المجتمع والدولة • ويعني التزام الجميع بحكم القانون ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم ، بحيث يجب على الجميع أن يوفق أعماله ، ويجري تصرفاته في نطاق القانون ، وعلى مقتضى أحكامه •

ولتحقيق هذا المبدأ ، لا بد من أن تنهض جهات قضائية ذات نظام قانوني قوي ، تتالف من رجال اكفاء ، يتمتعون بالاستقلال المطلق تجاه السلطتين التشريعية والتنفيذية ، يمارسون الرقابة على تصرفات هاتين السلطتين ، حتى تكون أحكام الدستور والقانون بمنجاة من العبث بها ، مما يساعد على توفير الحماية لحريات الافراد وحقوقهم ، وتغدو بالتالي هذه الاحكام قيدا حقيقيا على السلطات العامة ، بحيث اذا ما خرقت تلك الاحكام أو جرى تخطيها ، أمكن للقضاء أن يردها الى جادة الشرعية •

وأنى للقضاء أن يمارس دوره كما يجب ، اذ كانت هناك تشريعات تحول بين من أصابه حيف نجم عن تصرف صادر من السلطة ومراجعة القضاء بطلب ازالة الحيف ورفع الضيم ، والمواطن انسان ضعيف تجاه السلطة ، لا قوام ولا قبل له بها •

لذلك كان لا بد من تمكين المحاكم من ممارسة الرقابة على تصرفات السلطة ، والالحاف على الجهات المختصة بطلب الغاء التشريعات التي تحجب حق التقاضي ، لان العدل حق مقدس لكل مواطن ، وينبغي أن يكون قريب المنال لا بعيده اذ الى القضاء تشد الرحال للفصل في المنازعات بهدف اشاعة العدل بين الناس ، والعدل سبيلهم الى السعادة ، وسبيلهم الى الامن ••

وحتى تلغى هذه التشريعات ، كان من واجب القاضي ، تحقيقا لمبدأ الشرعية ، أن يستبعد تطبيق أي قانون غير دستوري ، لان الدستور أولى من القانون بالتطبيق والاعمال لاتسامه بالسيادة والعلو ، وحق القاضي حق وجد له في الدستور موئلا وكفيلا ، فهو حق دستوري لا ينال منه تشريع •

يكفيك فخرا أيها الزميل ، أنه قد صدر من محكمة النقض ، وفي عهدك ، ومن الغرفة التي ترأسها ، القرار التاريخي رقم ٣٣٤ أساس ٦٩٧ في ١٩٧٤/٤/٢٢ وفيه فتحت المجال على مصراعيه أمام القضاة ليوكدوا مبدأ الشرعية ويحافظوا عليه ، وبذلك نبهت السلطات الى ضرورة التزام القواعد التي رسمها وخطها القانون في أعمالها ، فلا تطغى في تصرفاتها ، ولا تصر على باطلها • لقد أبنت للقضاة أنه بمكنتهم ، ومكنة المتداعين أن يثيروا الدفع بعدم الدستورية ، وبالتالي سمحت باستبعاد القانون المخالف للدستور في الواقعة المعروضة ، وأنك بهذا القرار قد وفرت الاحترام للدستور والسلطة التي خالفته بلفت انتباهها الى ما ارتكبته من مخالفة ، وبذلك حلت بينها وبين التمادي في عمايتها •

وبعد • لا بد لي ، ونحن نقف على مشارف نهاية ولايتكم من التعبير عن تجلة الزملاء لاشخاصكم وتقديرهم لاعمالكم التي قدمتموها في سبيل خدمة مرفق العدل الذي يجمعنا كلنا • ولا شك في أن الجميع سيذكرونكم دائما لانه لا أقل من أن يرد الفضل عن طريق الذكرى على الاقل •

وأنتهز هذه المنسبة لاتمنى للزملاء الصحة والسعادة ، وأتمنى لخلف الاستاذ بدر الدين علوش ، الاستاذ المحترم عبد الرحمن المارديني كل توفيق ونجاح يستحقهما لانه أهل لذلك ، كما كان سلفه أهلا لذلك •

وأخيرا أسوق شكري وشكر الزملاء القضاة للاستاذ المحترم أديب النحوي وزير العدل على الجهود التي بذلها وما فتىء يبذلها في سبيل النهوض بالقضاء •

والله المستعان ، وهو ولي التوفيق •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ••

نصرت منلا حيدر
عضو المحكمة الدستورية العليا
المستشار القانوني لرئاسة الجمهورية



● **تعد وزارة الثقافة والارشاد القومي في القطر العربي السوري ، عدتها لاصدار مجلة ـ المسرح ـ وهي مجلة تعنى بالشؤون المسرحية في القطر ، وفي الاقطار العربية الاخرى ٠**

● « تطور فكرة القومية العربية في مصر » كتاب صدر في القاهرة لمؤلفه الاستاذ نبيه بيومي عبد الله ، حلل فيه واقع المجتمع المصري سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، واعتبر الفكرة الاسلامية هي الاساس وهي القوة الاساسية لمواجهة الاحتلال الفرنسي والانكليزي ، ثم تتبع الشعور القومي العربي ، فحدد عام ١٩٣٣ كنقطة تحول ، واعتبر بروز القضية الفلسطينية مساعدا قويا على تعميق فكرة القومية العربية في مصر ، حتى جاءت ثورة تموز فأعطت لمصر وجهها العربي الصحيح ٠

● **« طه حسين : حياته وفكره في ميزان الاسلام » هو الكتاب الجديد الذي صدر في القاهرة للكاتب المصري أنور الجندي ، حلل فيه فكر الاديب الراحل ، من خلال مؤلفاته ومقالاته الكثيرة التي كتبها عن الاسلام ٠**

ويعد المستشرق الانكليزي ـ آلان دافيد ـ كتابا جديدا عن طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في مؤلفاته الادبيـة ٠

● انتهى الدكتور سامي نصر أستاذ الفلسفة الاسلامية في جامعة عين شمس من كتابه « مختارات من آراء الفلاسفة في مشكلة المعرفة » حلل فيه نظريات بعض الفلاسفة من شرقيين وغربيين حول المعرفة ، وقارن بين هذه النظريات ٠

● **« الشوارع الخلفية » رواية جديدة للروائي المصري عبد الرحمن الشرقاوي ، صدرت طبعتها الثانية عن دار الشعب في القاهرة ٠**

● صدر للدكتور عبده بدري أستاذ اللغة العربية ورئيس تحرير مجلة ـ شعر ـ المصرية كتابان عن السود ، الاول « السود والحضارة العربية » والثاني « الشعراء السود وخصائصهم الشعرية » ٠

● **فاروق بسيوني ، انتهى من اللمسات الاخيرة على دراسة ، تعد الاولى من نوعها ، عنوانها « التصوير الاسلامي ، نشأته وممارسته » ، ودفعها الى المطبعة ، وستصدر قريبا ٠٠**

● أعد الباحث الاسلامي المصري الدكتور محمد عمارة دراسة شاملة عن أعمال علي مبارك ، وستصدر قريبا ، وقد عثر على رواية كتبها علي مبارك في أربعة أجزاء ، سبق بها رواية ـ زينب ـ التي كتبها الدكتور محمد حسين هيكل الذي عرف بأنه رائد الرواية العربية ٠

● **« أساطير الحب والجمال عند الاغريق » كتاب صدر في القاهرة للكاتب الراحل الاستاذ دريني خشبة ، تناول بأسلوبه الطلي ، أساطير اليونان القديمة غير المعروفة للقارىء العربي ٠ وسبق لمجلة الرسالة المصرية ، أن نشرت سلسلة طويلة من هذه الاساطير ٠**

● اكتشفت « كريمة » بنت الاديب الراحل الدكتور زكي مبارك ، مخطوطا جديد لابيها ، ونشرته بكتاب عنوانه ـ مجنون سعاد ـ ولعلها الفتاة التي أحبها الكاتب الكبير ، أيام اقامته في بغداد مدرسا في معاهدها ٠ الكتاب رسائل كتبها اليها بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٤١ ٠

● جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة ، افتتحت بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية مركزا للبحث العلمي واحياء التراث الاسلامي ، مهمة هذا المركز معالجة القضايا

الاسلامية ووضع الحلول المناسبة لها ، عن طريق الاتصال بالمفكرين والباحثين الاسلاميين ، وسيقوم المركز بجمع المخطوطات المبعثرة في شتى أنحاء العالم والعمل على تحقيقها ونشرها للاستفادة منها . لهذه الغاية تألفت ست لجان ، بدأت بممارسة أعمالها .

● **« مشاهداتي الباهرة ، بين لندن والقاهرة » كتاب صدر للكاتب العربي السعودي الشيخ محمد بن عبد الرحمن السويدي ، يعرض فيه صورا أدبية لمشاهداته في المدن التي زارها خلال رحلته من المملكة العربية السعودية الى لندن والقاهرة ، يعتبر الكتاب من أدب الرحلات .**

● **الدكتور عبد العزيز مطر ، أصدر كتابا عنوانه « خواطر نادرة في لهجات الخليج العربي » ، وهو دراسة مقارنة بين لهجات الخليج العربي ومدى التصاقها بالعربية الفصحى .**

● وفي انكلترا ، صدرت ثلاث كتب عن الخليج العربي، الاول ـ شيوخ البترول ـ حاولت فيه مؤلفته ـ لندا بلاتد فورد ـ اكتشاف حياة ومشاعر الرجل والمرأة والعلاقات السائدة بينهما ، والثاني : ـ الخليج الفارسي ـ وهو الاسم الذي يحلو للغربيين اطلاقه على الخليج العربي ، تحدث فيه مؤلفه ـ دافيد ي. لونغ ـ عن البترول وأهميته للعالم ، وكان مسحا سريعا لمنطقة الخليج العربي . أما الكتاب الثالث ، فهو ـ دليل الخليج ـ وهو تسجيل لمعلومات وأرقام وصور وخرائط خاصة بدول الخليج العربي كلها ، ودراسة لظروف المنطقة السياسية والاقتصادية .

● **« عبد المحسن الكاظمي ، حياته وشعره » كتاب للدكتور محسن فياض عقل ، تناول فيه بالبحث والدراسة حياة الشاعر العربي ونضاله الوطني والقومي ودعوته الى الوحدة العربية ، ودرس أيضا آثاره الشعرية وأهم المؤثرات فيها من هجرته الى مصر ، ومن اتصاله بكتابها وشعرائها ، كشوقي والبارودي وحافظ ومطران .**

● الاديب الليبي خليفة محمد التليبسي ، دفع الى المكتبة العربية دراسة ممتعة في الادب المقارن ، عنوانها ـ دراسات أدبية ـ تناول فيها أدب وحياة بعض أعلام الادب في الشرق والغرب : مثل المتنبي وأبي فراس وشو وابسن وغيرهم . وله دراسة ممتعة لظروف ونشأة المتنبي وأبي فراس وبلزاك الذين جمع بينهم كراهيتهم للمرأة ، باعتبارها حائلا بينهم وبين العظمة .

● **« الادب العربي المعاصر في المغرب الاقصى » كتاب جديد للدكتور سيد حامد ، تناول فيه الادب في المغرب العربي شعرا ونثرا ، بالتحليل والدراسة .**

● الكاتب الليبي جمعة أحمد عطية قاجة ، في دراسته القيمة « الفن الاسلامي ومكانته الدولية » من خلال المهرجان الاسلامي الذي أقيم في لندن ، العام الماضي ، تتناول بالبحث ثلاثة موضوعات ، هي : المفهوم الاسلامي للجمال والزخرفة الاسلامية ، وروح الابتكار .

● **يعد المستشرق الفرنسي جان بيرك ، كتابا يتضمن ترجمة لبعض مؤلفات عميد الادب العربي الراحل الدكتور طه حسين ، ودراسات نقدية لمعظم آثاره ، ومدى تأثير الثقافة الفرنسية في فكره ورأيه .**

● الشاهنامة » التي ألفها الشاعر الفارسي الفردوسي في ستين ألف بيت ، ترجمت الى العربية في القرن السابع عشر ، عثر على هذا المخطوط النادر مؤخرا ، وقد كان بحوزة أحد السلاطين العثمانيين ، ثم اشتراها معرض المتروبوليان في نيويورك بـ ٣٨٠ ألف جنيه استرليني .

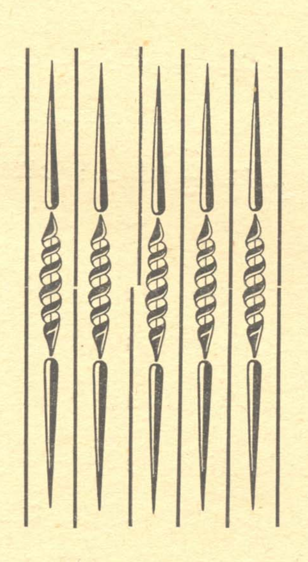
● **عثر في مكتبة بخارى على مخطوط لم يكن معروفا من قبل ، هو كتاب ـ الكافي في الحساب ـ للعالم العربي أبي بكر محمد الكرخي المتوفي سنة ١٢٠٩ م. هذا المخطوط هو أول عمل كبير لهذا العالم ، ويقع في ٤١٦ صفحة ، فيه معلومات متنوعة تختص بالحساب وعلم الجبر والهندسة .**

مع الآداب العالمية

ليس هناك ما يستحيل متى صممنا على عمله

لقد علم الزعيم الذي يحبه ويحترمه حزبنا وشعبنا، الرفيق كيم ايل سونغ ، ما يلي :

« الاعتماد على الذات هو احدى السمات الرئيسية من السلوك الثوري الشيوعي ومن الروح الثوري الشيوعي على الشيوعيين أن يعمدوا دائما الى تجنيد قوة الشعب في بلدهم لقيادة الثورة الى الظفر ، ويعلموا كيف يبنون مجتمعا جديدا ، مقتحمين الصعاب أية كانت بجهودهم الخاصة » ·



باك يونغ سون

كلما درست هذا التعليم للرفيق كيم ايل سونغ ، تحضر الى ذهني الاحداث التي لا تنسى والتي وقعت أيام النضال المسلح المناهض لليابان ·

لقيت الرفيق كيم ايل سونغ للمرة الاولى في سو وانغ تشونغ في أوائل عام ١٩٣٣ ·

كنت أقيم آنذاك في قاعدة حرب العصابات وانغ

تشونغ ، حيث أعلم كيفية استخدام « قنبلة يونغيل » ٠

كنت قد شرعت بدرس عن « قنبلة يونغيل » لرفاقي رجال حرب العصابات في تاي بانغ زا ، التابعة لسو وانغ تشونغ ، عندما دخل شاب وعلى محياه ابتسامة كريمة ٠

لم أكن أعرف من عساه يكون ٠ ولكن ما دام رجال حرب العصابات ينظرون اليه جميعا نظرة الالفة و الاحترام أمكنني تصور أنه ليس مقاتلا عاديا ٠

٠٠٠ يجب أن تكونوا ضليعين في استخدام القنبلة اليدوية هذه المرة ٠ لا يجوز أن تصابوا بأذى من القنبلة المعدة لابادة الاعداء ! ٠٠٠

نظر الى رجال حرب العصابات من حوله ، ووجههم على هذا النحو ، ثم جاء الي ، وشد على يدي برفق وسألني بالتفصيل كيف يسير صنع القنابل لدي ٠ وهذا جوهر ما قال :

٠٠٠ انك تقوم حقا بعمل مدهش ٠ آمل أنك أثناء اقامتك هذه لا تعلم رجال حرب العصابات وحدهم ، بل وكل الكهول وأعضاء رابطة الاولاد في منطقة القاعدة ، كيفية استعمال القنبلة اليدوية ٠ عندها تغدو الاسلحة التي صنعتها بالجهد الجهيد فعالة في ابادة المزيد من الاعداء ٠٠٠

٠٠ اصنع المزيد من القنابل اليدوية ٠ كما تعلم ، فليس لدينا مكانا نستمد منه السلاح والطعام ٠ ولذا فعلينا أن نتدبر كل شيء بجهودنا الذاتية ٠٠٠

خلف هذا الكلام وراءه وخرج ٠

وليس الا بعد الفراغ من محاضرتي علمت أنه كان الرفيق كيم ايل سونغ ٠

عدت بعد ذلك الى ينغيل دون أن تتاح لي فرصة أخرى لرؤيته ٠

الا أن ما قاله الرفيق كيم ايل سونغ في ذلك الوقت قد أمدني بقوة تفوق التقدير وحملني على تجديد تصميمي الحازم على انتاج واصلاح المزيد من السلاح ٠

ومنذ ذلك الحين، عملت بجهود متضاعفة لانتاج كل ما كان بوسعي ٠

هكذا تمكنا من صنع المدافع الخشبية وحتى من اصلاح البنادق وابر السلاح ، ومزاليج القدح ، واقفال الامان ، كل ذلك بأنفسنا ٠

لم تكن مهمة سهلة على أية حال أن ننتج قطع البنادق والمسدسات التي تصنع في المصانع ذات الالات الدقيقة ، بأدوات بسيطة كالفأس والمنشار ، والشاكوش والكماشة والمبرد ٠ هناك في بلدنا أسطورة تقول أن ابن الخياطة قد صنعت بجلخ مدقة حديدية على الحجر ، ولم يكن وضعنا في تلك الايام في الواقع بأقل صعوبة من هذا ٠

ولكن كلما وجدت نفسي في صعوبة ، كنت أتذكر كلمات الرفيق كيم ايل سونغ وأعمل بهمة مضاعفة ٠

كنت في ربيع عام ١٩٣٦ أعمل في هون زين ، وقيل لي يوما ان الرفيق كيم ايل سونغ قادم ٠

انتظرت وصوله بتلهف لكي أقابله هذه المرة مهما كانت الظروف ٠

وكما تمنيت ، فقد كانت لي فرصة لتلقي توجيهات أكثر تفصيلا منه ٠كان ثمة آنذاك في احدى جهتي معسكرنا السري مهجع الجنود ، وكان مكان اصلاح السلاح في الجهة الاخرى منه ٠

وبينما كان الرفيق كيم ايل سونغ يترأس اجتماعا في مهجع الجنود ، كثيرا ما كان يأتي الى مكان عملي خلال الاستراحات ويقول لي أشياء كثيرة ٠

« ماذا ، أهذا أنت أيها الرفيق الصياد باك (كان هذا لقبي) ! لا بد أنك قد بذلت جهودا شاقة ! »

عرفني منذ النظرة الاولى ، وقالها بلهجة العاطفة ، وسألني بالتفصيل عن اصلاح السلاح ٠

أخذ يوما بندقية كنت قد جلبتها لاصلاح حاضنها المكسور ، وتفحصها باهتمام برهة من الزمن ثم قال لي : « لقد كسروا بندقية جيدة • أليس هناك وسيلة لاصلاحها ؟ » •

أريته حاضنا من صنع يدي كان مطروحا على الارض المحماة لكي يجف ، وأجبته أنني سوف أبدل الحاضن المكسور بهذا •

تلمس الرفيق كيم ايل سونغ كل جانب من الحاضن المنحوت حديثا ولاحظ :

« انه شديد الشبه بالذي صنع في المصنع ! أي نوع من الخشب كشطت لصنعه؟ وأي نوع من الاداة استخدمت»؟

أجبت أنني قطعته من جذع بالفأس والسكين • أخذ الرفيق كيم ايل سونغ عندها أدواتنا الغليظة واحدة واحدة وتفحصها باهتمام ثم سألني : « هل اشتغلت يوما في النجارة أو عملت في ورشات الحدادة قبل الانخراط في الثورة » ؟

أخبرته أنني لم أكن يوما نجارا وأنني عاونت أبي فقط في حانوت حداد أيام طفولتي •

التفت الرفيق كيم ايل سونغ عندها الى الرفاق الواقفين بجانبه وقال على وجه التقريب :

••• انظروا ! لا يوجد ما هو مستحيل متى صممنا على عمله • لم تكن لهذا الرفيق خبرة في النجارة أو الحدادة قبل اشتراكه في الثورة • ولكن ليس ثمة ما لا يستطيع صنعه كما ترون ، لان بذل الجهود المضنية وهو حازم التصميم في سبيل الثورة • ان أي امرىء ليظن بأن هذا الشكل من حاضن البندقية لا بد مصنوع في مصنع • من يعرف يوما أن هذه الصنعة الرفيعة قد تمت بالفأس ؟•

ثم أردف الرفيق كيم ايل سونغ يقول :

••• ينبغي أن تواصل انتاج المزيد من الرمانات واصلاح المزيد من السلاح لاسداء خدمة متعاظمة للثورة •

أصلح كل شيء ، بحيث لا تهدر بندقية واحدة أو قنبلة واحدة ، واصنع ما ليس عندنا •

ان كل البنادق والرصاصات قد غنمها رفاقنا لقاء أرواحهم • فهل يجوز أن ندع هذه الاسلحة الثمينة بدون اصلاح ونلقيها ؟ ••

جعلتني ملاحظاته أشعر بفخر عظيم في عملي ، وأعاهد نفسي مرة أخرى على تنفيذ كلما أوكل الي دونما تقصير ، بالانهماك فيه بجهود أشد دأبا ، مخلصا لتوجيهاته •

عمت بعد ذلك ، بناء على أمر من الرفيق كيم ايل سونغ ، الى اقامة معسكر سري في تازنتشانغ من محافظة موسونغ ، عملت فيه مسئولا عن ورشة التسليح والمشفى وفرقة الخياطة ، وانتقلت الى المعسكر السري في هيشازكو في الشتاء من ذلك العام •

وعندما وصلته ، قالوا ان الرفيق كيم ايل سونغ قادم في غضون بضعة أيام •

الا أنني وجدت أن مسكنه لم يهيأ بعد • فعجلت في اليوم التالي بالاستعداد لبناء كوخ بأسرع ما يمكن • ففي النحو المألوف من التفكير ، كان بناء بيت من جذوع الشجر وتجهيزه بالباب والشبابيك وبمكتب وكراس أمرا بالغ الصعوبة اذا أريد نجر خشب الاشجار الميتة في الشتاء القاسي ، وذلك باستخدام الفؤوس والمناشير فقط •

ومع ذلك ، فلا يمكن أن يستحيل أمر اذا نحن حاولناه بالروح الثوري من الاعتماد على النفس ، بحثا عن الحل بجهودنا الذاتية ومهما كان الثمن ، كما علمنا الرفيق كيم ايل سونغ على الدوام •

خضنا في الثلج الذي يبلغ عمقه صدور الرجال، وقطعنا بعض الاشجار الميتة بالفؤوس والمناشير ، وهبطنا بها • هكذا بنينا في ذلك اليوم ، الرفيق كانغ وأنا ، بيتا من الجذوع لكي يحل به •

وصل الرفيق كيم ايل سونغ في اليوم التالي الى المعسكر السري في هيشازكو •

كان مسرورا لرؤيتي · أخرج مبردا ومنشارا للحديد من حقيبة الظهر التي كان يحملها جندي الاتصال ، وأعطانيهما قائلا :

« لقد حصل رفاقنا عليها من أجلك · لقد أوكلت اليهم هذه المهمة عندما كانوا ذاهبين الى بعض البلدات في مهمة سرية · اصنع بهما المزيد من الرمانات ، وأصلح السلاح على نحو أفضل » ·

فاض قلبي بانفعال دون الوصف، وأنا أفكر بعنايته العميقة واهتمامه البالغ بنا نحن القائمين على ورشة التسليح ·

كان رجال الرفيق كيم ايل سونغ يتمسكون جميعا برغبته ، يلتقطون حتى قطعة من نفاية الحديد أو مسمارا حيثما وجدوها ، ويجلبونها الى ورشة التسليح · وبنفاية الحديد والمواد المجموعة على هذا النحو ، كنا نصنع الرمانات ونصلح السلاح ·

قام الرفيق كيم ايل سونغ في ذلك اليوم بزيارة الكوخ الذي بنيناه ، وعبر عن اغتباطه ·

« ·· من المدهش حقا أنكما بنيتما هذا الكوخ الجميل في الشتاء · وما دمتما قد شرعتما بالبناء ، فسوف يكون عليكما أن تبنيا كوخا آخر ·· »

ثم أوكل الي مهمة الذهاب الى جبل هونكتو مع الرفيق كانغ ، واقامة معسكر سري معد لورشة التسليح وغرفة للخياطة ·

« ··· اصنعوا العديد من الرمانات · سوف أرسل لكم كميات كبيرة من البارود ونفاية الحديد والاسلاك وأشياء أخرى · وسوف أذهب الى هناك يوم رأس السنة المقبل · ولذا فابنوا هناك بيتا كافي الكبر لكي نجتمع به سوية ·· »

طلب منا الرفيق كيم ايل سونغ ذلك عند فراقه ·

كما قال ، ذهبنا الى جبل هونكتو وبنينا كوخا كبيرا من الجذوع كانت فيه غرفة ذات أرضية مدفأة كافية لايواء سرية ، كما بنينا ورشة للتسليح ، في غضون أربعة أيام ·

وعند اتمام المعسكر السري ، بدأت اللوازم ترد لصنع الرمانات ·

كنا نعمل على مدار ساعات اليوم لمواصلة امداد الواحدات بالرمانات ·

كان يوم رأس السنة يقترب ·

عجلنا بترتيباتنا لاستقبال الرفيق كيم ايل سونغ ·

طبعا لم تكن لدينا في تلك الايام مواد يعتد بها لتهيئة الطعام احتفالا برأس السنة ·

قررنا أن نصنع شعيرية من نشاء البطاطا ، وكانت لونا مفضلا لدى الرفيق كيم ايل سونغ ·

كانت المشكلة الان كيف نصنع مصفاة تسليك العجين · كان بوسعنا أن نصنع كل شيء بالفأس ، ولكن لا جدوى منها لصنع المصفاة الاسطوانية ، رغم أننا حاولنا وسعنا · اقترح الرفيق كانغ عندها فكرة ضغط عجينة النشاء بالقضيب المعد لمصفاة التسليك مباشرة ، في علبة قصديرية كنا قد أعددناها أصلا لوضعها تحت المصفاة · ثقبنا ثقوبا عديدة في قعر العلبة وضغطنا العجينة فيها بالقضيب الذي كنا قد صنعناه بأيدينا · كانت النتيجة أن العلبة سقطت مرة بعد مرة · قطعنا شجرة ذات شعب ، ووضعنا العلبة بين فرعي الشعب ، ومددنا تحتها قطعتي السلك لكي لا تسقط · نجحنا أخيرا في صنع مصفاة تسليك العجين ·

أتانا الرفيق كيم ايل سونغ يوم رأس السنة على ما وعد · وصنعنا الشعيرية بالمصفاة ·

استغرب الرفيق كيم ايل سونغ أن يرى الشعيرية وتعجب قائلا :

« كيف حصلتم هذا هذا اللون هنا في الجبل » ·

بعدما سمع قصة كيف صنعنا المصفاة ، تفحصها عن كثب وقال :

.. اذا حاولنا على هذا النحو من موقف صنع كل شيء بقوتنا الذاتية ، فاننا نستطيع أن ننتج هذه الشعرية وحتى أشياء أطيب منها في هذا الجبل ..

جاءت هذه الكلمات للرفيق كيم ايل سونغ تزيد قناعتنا رسوخا من أنه ليس ما يستحيل علينا متى عملنا من صميم القلب في مصلحة الثورة .

وصرت أفهم فيما بعد ، بمزيد من العمق وبتجربتي الخاصة ، ماذا عنى الرفيق كيم ايل سونغ حقيقة بكلماته آنذاك .

غادر الرفيق كيم ايل سونغ مرة أخرى الى الجبهة ، وهو يقود رجاله بنفسه ، موكلا الينا مهمة ملحة في صنع « بوسون » (جوارب كورية محشوة قطنا) لاعضاء وحدة الجبهة ، في آن مع اصلاح السلاح .

كان علينا أن نصنع عدة مئات من أزواج «بوسون» في برهة أسبوع واحد . كان اداء هذه المهمة عملا بالغ الصعوبة بآلة الخياطة الوحيدة التي كانت لدينا .

ولكن فكرة أن رفاقنا في الجبهة كانوا يقاتلون العدو بدون ارتداء جوارب « بوسون » قد جعلتنا نعجل بعملنا ، ثابتي التصميم على انجاز المهمة بأسرع وقت ممكن ومهما حدث .

عمل أعضاء مجموعة الخياطة بالتناوب ليل نهار ، مشغلين الآلة كل الوقت .

غير أن الابرة ، وهي الوحيدة التي كانت لدينا ، قد انكسرت قبل أن يتم صنع نصف كمية « بوسون » المحددة .

لم أكن أعلم في تلك اللحظة ماذا أفعل . كان يتوقع وصول جنود الاتصال في غضون بضعة أيام لاستلام منتجاتنا .

بدأ باك سوهوان ، وكيم سوبوك وغيرهما من رفاق مجموعة الخياطة ، في لهفتهم ، يصنعون « بوسون » خياطة باليد . عملوا طوال الليل . ولكن كان من رابع المستحيلات أن يتم تنفيذ مهمتنا باليد في الوقت المحدد .

غير أننا لم نكن نستطيع الحصول على ابرة لآلة الخياطة في أعماق الجبال ، كما وجدنا أن صنع ابرة أمر عسير .

كنا صنعنا مكوكا لآلة الخياطة أيضا . ولكن كيف نصنع ابرة بالمبرد ؟

شعرت بنفسي نهب الاضطراب والتبرم .

« كيف أقدم تقريري الى الرفيق القائد ؟ حدثت نفسي بأنه لا يمكن أن أقر له أبدا « أنني فشلت في تنفيذ المهمة الثورية بسبب الابرة المكسورة » . ومثلت أمام ناظري صور رفاقي في السلاح يقاتلون العدو وسط وابل من الرصاص .

لم أستطع أن أصبر على الامر أكثر من ذلك .

« ليس هناك ما لا أستطيع حله ابان تنفيذ المهمة الثورية » . همست نفسي بهذا وأخذت أبري قطعة من سلك فولاذي على حجر بقصد صنع ابرة لآلة الخياطة .

لو كان السلك ثخينا ، لأمسكته بيدي وعالجته بحرية . ولكن قطعة السلك كانت دقيقة الى حد أنني كنت أمسكها بصعوبة بين أظافري ، وكان عملا عسيرا حقا أن أثقب فيها سما وحتى أن أحز بها ثلما . كانت المهمة لا تقل صعوبة عن « تقوير بذرة التبغ دون شقها » ، كما يقول المثل .

بقيت طوال الليل أعارك قطعة السلك وما أزلها من اليد ، وما أخرقها عليها ، حتى أنتجت جهودي المضنية أخيرا شيئا يشبه ابرة آلة الخياطة .

عجز الكلام عن قول فرحتي عندما وجدتها تلائم آلة الخياطة تمام الملاءمة .

ولكنني ما أن غرزت بضع غرزات حتى انكسرت . مكثت مرة أخرى طوال الليل ، فصنعت ابرة أخرى وعالجتها معالجة حرارية لكي أصلبها على نحو مناسب . ولكنها ما لبثت أن انكسرت هي الاخرى .

كان واضحا أن قطعة السلك لن تجدي فتيلا مهما بذلت من جهود ٠

ماذا أستخدم اذن ؟ لم يكن يتوفر لنا الحصول على سلك أصلب ، ولم يكن لدينا التجهيز اللازم لكي نعالجه معالجة حرارية حسب الرغبة !

كنت فاقد الامل كلية ٠ وفي هذه اللحظة بالضبط ، رجعت كلمات الرفيق كيم ايل سونغ الى ذهني : « ٠٠٠ ليس هناك ما يستحيل متى صممنا على عمله » ٠

تصورت نفسي عندها مستسلما للمصاعب وكررت حديثي لنفسي :

« لم أتفكر بعد بالقدر الكافي ٠ لن يستحيل أي شيء اذا أنا فكرت فيه مرة بعد مرة » ٠

أقنعت نفسي وحاولت جاهدا أن أفكر في سبيل آخر ٠

برقت في ذهني فجأة صورة ابرة الخياطة ٠ أمسكتها بين اصبعي وتفحصتها مرة بعد مرة ، وتساءلت هل يمكن أن أحصل على واحدة أثخن منها ، عندما صعقتني فكرة أن الرفيق كانغ كان يغرز في قبعته مسلة لرتق الاحذية ٠

سللتها من قبعة الرفيق كانغ وأطرقت فيها ٠

كانت المسألة فوق كل شيء هي كيف أثقب سما في ابرة دقيقة وصلبة كهذه ٠ بدا لي الامر مستحيلا بكل بساطة مهما قد أحاول ٠

كيف أستطيع احداث ثقب في مثل هذا السلك الصلب المستدير الدقيق ، حتى فيما لو كان لدي مثقب دقيق يمكنه ثقب قطعة من الحديد ؟

فكرت على هذا النحو والمسلة في يدي وصفنت : «ألن يكون هناك سبيل آخر اذا ما لم أستطع ثقبها ؟ »

خطر لي أنه « قد يمكن استخدام سم الابرة الموجودة فيها ، بدون احداث ثقب جديد » ٠

وفرت هذه الفكرة مفتاحا لحل العقد المتشابكة ٠

بدأت أسخن نهاية المسلة بالنار من جهة سمها لملاءمة نهايتها بآلة الخياطة ٠

ولكنها لم تكن مهمة سهلة هي الاخرى ٠

كانت أدنى زلة قمينة أن تؤدي الى سد سم الابرة ، في حين أن نهايتها كادت لا يمكن تدبيبها في جهدي للحفاظ على السم سليما ٠

وفي نهاية تفكير عميق ، ثبت قطعة سلك دقيقة في سم الابرة وأخذت أبرد نهايتها لكي أجعلها حادة ٠

عانيت منها الامرين حقا ، ونجحت في تدبيب نهايتها ٠ واجهت عندها مشكلة أخرى ٠ كيف أحز ثلما في سطحها لكي يجري فيه الخيط ؟

كانت الابرة صغيرة وزالة الى حد أنني كدت لا أستطيع الامساك بها بين اصبعي ٠ ولم تكن ثمة وسيلة لتطبيق المبرد عليها ٠ لم أكد أمسك بها بين اصبعي حتى كانت تسقط قبل أن أشعر بذلك ٠ ولم أكد أحاول بردها حتى تزل ساقطة ٠

لم يوصلني جهدي المتشنج الى شيء ما دمت أعمل بأيد عزلاء ٠ فكرت تفكيرا شديدا لكي أجد سبيلا لحز الثلم ٠

في نهاية المطاف ، شققت قطعة من نفاية الحديد الى شقين ، ووضعت الابرة بينهما ، ثم ثبتها بشدة الى قطعة قصيرة من جذع الشجر ، وأخذت أحز الثلم بعناية بالمبرد ٠

كان مجرد اندفاع مخطىء من رؤوس أصابعي قمينا أن يجعل خط الثلم معوجا ٠ وفيما لو رسمت خطا معوجا ، لفشل كل ما عملت حتى الان ٠

مضيت أعارك الابرة ، غير آبه بطلوع الفجر أو بانبلاج نور الصباح ٠

كانت الابرة جاهزة الان ، برأسها المدبب وبثلمها ، ولكن عندما حاولت تثبيتها في آلة الخياطة ، لم تلائمها اذ أن النهاية الاخرى كانت مفرطة الدقة ٠ لففت عليها لفات من السلك الدقيق ولحمتها لكي تلائم الآلة ٠

ركبتها مجموعة الخياطة في الآلة وأخذن يخطن النسيج

بعناية • اشتغلت بسلاسة • تحلقت عضوات المجموعة من فرحهن وأرسلن الهتافات وتشابكت أيديهن بعضها ببعض•

غير أن الخيط كثيرا ما كان ينقطع عندما تعمل الآلة بعض الوقت ، ولم نستطع التعجيل في الخياطة • أخرجت الابرة وسحبت الخيط على طول الثلم لتحديد الموضع الذي ينقطع عنده • ظهر أن ثمة زاوية صغيرة جدا ، وهي ، وان كادت لا ترى بالعين المجردة ، كانت ناتئة ما بين السم والثلم ، مما يجعل الخيط ينقطع •

كان لا بد من ازالة تلك الزاوية المتشكلة عند بداية الثلم الضيق ، غير أنه لم تكن لدينا أداة تصلح لتنظيف الثلم الذي كان أضيق من أن يتقبل المبرد أو السكين أو المثقب•

بعد تفكير مجهد ، بردت قطعة سلك أدق من الابرة وجعلتها حادة مربعة المقطع ، ثم وضعتها ما بين السم والثلم وأدرتها مرارا وتكرارا حتى سحجت الزاوية الناتئة•

لم يعد الخيط ينقطع الان وتم ضمان سرعة ملائمة للخياطة •

هكذا كلفني صنع أبرة جهدا جهيدا • غير انها لم تخدم طويلا وانكسرت بعد درز بضع عشرة زوج من الـ « بوسون » ، ذلك نظرا لانها كانت أقل متانة من ابرة آلة الخياطة الحقيقية • ولذا ، فقد أرسل أحد الرجال الى معسكر سري آخر يقع غير بعيد عنا فجلب مسلتين • جهدنا عندها من جديد لصنع ابرتين اخريين لآلة الخياطة •

درزنا جوارب الـ « بوسون » وأرسلناها الى الوحدة ضمن الزمن الذي حدده الرفيق كيم ايل سونغ •

شعرنا كلنا بأفئدتنا تقفز فرحا وفخرا لاننا نفذنا المهمة الثورية التي أوكلت الينا دونما تقصير •

وكلما فكرت بما حدث في تلك الايام ، لا أتمالك كبت العواطف التي تجيش في قلبي حتى الان ، وأتذكر بها أيام النضال المسلح ضد اليابان الذيخضناه متحدين كل المصاعب وحالين كل المشاكل بأنفسنا ، بالروح الثوري من الاعتماد الذاتي الذي علمه الرفيق كيم ايل سونغ ، كما أتذكر ما تلاها من أيام بناء صرح الوطن الجديد بعد التحرر •

ان الفضل يعود لافكار الرفيق كيم ايل سونغالثورية في أن وطننا يزدهر وينمو ، بلدا سيدا مستقلا ، غنيا وقويا ، بلدا صناعيا زراعيا اشتراكيا ، يشمخ بمهابة في الشرق •

لقد علمنا بمشقة ، شادين على الاحزمة ، ومقتصدين ولو فلسا واحدا ، مخلصين لتوجيهات الرفيق كيم ايل سونغ ومتبعين قيادته الحكيمة • وبالنتيجة ، فقد أسسنا بعد الحرب صناعة ثقيلة جبارة فوق أكوام الرماد ، تمكننا من بناء الافران العالية ومحطات توليد الكهرباء ، ومن انتاج الشاحنات السيارة والجرارات والآلات الضخمة لانفسنا ، وكذلك الصناعة الخفيفة • وفي الوقت ذاته ، فقد بنينا الزراعة الاشتراكية التي تمكنا بها من بلوغ الاكتفاء الذاتي في الطعام •

لقد أرسى بلدنا الاسس المتينة للمضي في تقدم تحسين حال الشعب ، عن طريق تجنيد الموارد المتنوعة الوافرة الى الحد الاقصى ، بجهودنا نحن وبتكنيكنا نحن •

لقد صنع وطننا كوريا الاسس الموثوقة لتمكين الشعب ، ليس في النصف الشمالي وحسب ، بل وفي النصف الجنوبي في المستقبل ، أن يعيش حياة لائقة رغيدة لن يعود معها يشتهي شيئا عن الاخرين ، وهو يقوي الاسس السياسية والاقتصادية لتوحيد الوطن •

كلما فكرت بوطننا الفخور ، الذي يبلغ من القوة وما يخوله أن يحل بذاته تماما كل المسائل الناشئة في ثورتنا في الميادين السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي كافة ، ازداد عهدي على نفسي صلابة في أن أعمل بمزيد من المشقة ، وأن أحيا وأتعلم بالروح الثوري من الاعتماد الذاتي الذي علمه الرفيق كيم ايل سونغ دائما ، منذ باكورة أيامه في النضال المسلح ضد اليابان •

طبعت في مطبعة المجد . دمشق .. بحصة